نور الدين محمود

– الرجل والتجربة –

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
المقدمة
الفصل الاول : رحلة في تكوين الرجل
الفصل الثاني : في ميدان الإدارة والقضاء
الفصل الثالث : في ميدان المال والمجتمع
الفصل الرابع : في ميدان التربية والثقافة
قائمة بأهم المصادر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

- 1 -

يكتسب نور الدين محمود أهميته في ميدان البحث التاريخي لتفوّقه في ميدانين : أحدهما انه حقق سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية والاستراتيجية ضد الصليبيين ؛ وعزز بذلك المنجزات السابقة التي حققتها المقاومة الاسلامية في مراحل (البدايات) : مودود بن التونتكين (502-507 هـ)، آق سنقر البرسقي (518-521 هـ) من ولاة السلاجقة في الموصل. سقمان بن ارتق (491-498 هـ)، ايلغازي بن ارتق (513-516 هـ)، بلك بن بهرام (516-518 هـ) من أراتقة ديار بكر. عماد الدين زنكي (521-541 هـ) مؤسس أتابكية الموصل وحلب ... وفتح الطريق لظهور القيادات التي قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبي : الناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس وآل قلاوون. فهو - من ثَمّ - يعدّ حلقة الوصل الخطيرة في تاريخ المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي.

والآخر - وهو الاخطر والأهم - انه حقق بانقلابيته التي غطت جلّ مساحات الحياة، واستمداده من منابع الإسلام الأصيلة في القرآن والسنة، الأرضية المناسبة التي تبعث (المجاهد) إلى الوجود وتمكنه من اداء دوره في أحسن (الظروف) واكثرها قدرة على شحن طاقاته... لاسيما وان الجهاد لايتحقق مفهومه الحركي الدائم الا بتواجد شروط معينة أبرزها القيادة المخلصة، الملتزمة، الواعية، الذكية... والتماسك الجماهيري، والدفع الروحي الدائم، والرؤية الموضوعية.

ولقد حقق نور الدين هذه الشروط فكسب أهميته الكبرى دون عشرات غيره من القادة والأمراء، جاءوا قبله أو بعده، ولم يحققوا شيئا على هذا المستوى الذي هو أساس النجاح الحقيقي في تاريخنا كله.

- 2 -

لقد بدأ الرجل حكمه لإمارة محدودة لاتتجاوز مدينة حلب الا قليلا.. وتوفي وهو يحكم دولة تمتد من حدود فارس حتى صحراء ليبيا ومن جبال الأناضول حتى النوبة واليمن والبحر العربي .. ليس هذا فحسب، بل انه أنشا دولته هذه وسط تحديات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة، وكانوا ما يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد.

وليس هذا البحث سوى اجابة عن هذا السؤال... تجوال في الخطوط الخلفية للجبهة بحثا عن العناصر التي صاغت الانتصار في القيادة والقاعدة على السواء... والمنهج الصحيح هو الذي يعتمد المنطوق الإسلامي دوما : ان أي تغيير في الخارج، في التاريخ، لايتحقق الا بانقلاب في الداخل .. في الذات.. بممارسة عملية (التغيير الذاتي) وفق المؤشر القرآني { **ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** }.. وهو الاسلوب الذي اعتمده نور الدين في العمل فحقق به تلك الانتصارات التي حدثنا عنها كثير من المؤرخين، كحسن حبشي في كتابه (نور الدين والصليبيون) وحسين مؤنس في كتابه (نور الدين محمود) وعبد الفتاح عاشور في كتابه (الحركة الصليبية) والسيد الباز العريني في كتابه (الشرق الاوسط والحروب الصليبية) ورنسمان في كتابه المترجم (تاريخ الحروب الصليبية) وكاهين في كتابه (Le Histoire de Croisades) وسيتون في كتابه (المحرّر) The History of The Crusades وإليسيف Elisseeff في كتابه (Nur Ad-din) وهو يشذ عن رفاقه في تخصيصه الجزء الثالث من كتابه لتحليل منجزات نور الدين العديدة في كافة المناحي الاجتماعية والمالية والادارية والعمرانية والتعليمية. الا ان المنهج الذي يعتمده الرجل غير المنهج الذي اعتمدناه هنا، فمحاولته – على اهميتها واتساعها – أقرب إلى ان تكون عملية مسح أفقي للمنجزات منها إلى ان تكون توغل عمقي لتفهم حقيقة الدور الذي لعبه نور الدين والأسباب البعيدة والقريبة التي تكمن وراء معطياته..

ثم ان المؤرخ المذكور لا يقف عند حدود عصر نور الدين، ولكنه يندفع وراء ضغط النصوص وندرتها واغرائها، كذلك ، لكي يتجاوز العصر والمكان، في محاولة لتقديم صورة اكثر اتساعا وأغنى مادة لهذا الجانب أو ذاك. فالأداة الادارية التي يعرض لها – على سبيل المثال – ليست أداة نور الدين ولا أداة دولته في حدودها الجغرافية المعروفة، ولكنها أداة استمدت مادتها البنائية من عصور سبقت نور الدين أو أعقبته، ومن أمكنة تندّ عن حدود الخارطة السياسية التي بلغتها دولته .. وما يقال عن هذا الجانب يمكن ان يقال عن الجوانب الاخرى الاجتماعية والمالية والتعليمية .. لكن كتاب إليسيف بجزئيه الأولين اللذين يتناول فيهما منجزات نور الدين السياسية والعسكرية، وبجزئه الثالث التي يعرض فيه للجوانب المذكورة، يبقى – بعد هذا كله – أوسع دراسة كتبت عن نور الدين إلى هذا الوقت.

المهم ان هؤلاء المؤرخين لن يحدثونا بعمق وإسهاب عن الأسباب الحقيقية التي تكمن في شخصية نور الدين، وفي منجزاته في الميادين الخلفية، وفي تجاوب الجماهير معه.. الجماهير التي تظل قيم الإسلام كامنة في أعماقها حتى تتحرك بضربة حادثة ما، أو أسوة قيادة مخلصة، أو بروز تحدٍّ خطير.. لكي ما تلبث أن تسهم في صنع الحركة التاريخية إسهاما أصيلا..

– 3 –

ان تجربة نور الدين هنا . فيما يمكن تسميته باطمئنان : إقامة الحكم الإسلامي في دولته – تأتي شاهدا تاريخيا مقنعا، تماما كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله ، على ان الإسلام كنظرية (ايديولوجية) قدير في أية لحظة تتوفر فيها النيّة المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على التماس مع واقع الحركة التاريخية وصياغتها، أو اعادة صياغتها، على ضوء معطيات الإسلام (كتابا) و (سنة) واجتهادا ورصيدا تشريعيا، وعلى ان الجماهير الاسلامية، مهما صدّت عن الاتصال المباشر بموارد فكرها وعقيدتها وتاريخها ؛ فانها تظل تحمل في عقولها وقلوبها ووجدانها ذلك التواصل الدائم، والتناغم العميق، مع هذا الدين الذي كرّمها الله ورسوله به، والذي لن تجد معه في أي (بديل) قد يجيء من هنا أو يؤتى به من هناك.. الا التغرّب والتمزق والانقطاع.

انها جماهير قرون الالتزام الطويلة ليس مع عقيدة كالعقائد تحمل (الخرافة) التي تسقط بها في بدء الطريق، أو (العتمة المادية) التي تضلّ معها في منتصف الطريق... ولكنها عقيدة المنطق البشري والتوازن المعجز بين مطالب الروح العليا وضرورات المادة وشدّها.. انها لن تجد ما تضيّعه هناك : العقل أو الروح أو الجسد..

ومن ثم تظل تحمل الاستعداد للعودة إلى العقيدة التي ما ضيعتها، إذ تفرقت بها السبل، العودة التي كانت تتحقق كفعل تاريخي من خلال بروز تحدٍّ خارجي أو داخلي خطير، أو في أعقاب ظهور قيادة واعية مؤمنة .. العودة التي كانت تخرج بها دوما من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الاديان إلى عدل الإسلام !!

– 4 –

يتضمن هذا البحث فصولا أربعة : تناولت في أوّلها عرضا لتكوين شخصية نور الدين، وفي ثانيها وثالثها ورابعها على التوالي تحليلا لمنجزاته الادارية فالاجتماعية فالتعليمية.. معتمدا في هذا كله على طبقة المصادر الأساسية . وكثير منها معاصر لنور الدين . والتي قدّمت جلّ مواد هذا البحث، واكثرها أهمية ولا ريب كتاب (سنا البرق الشامي) للعماد الاصفهاني و (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي و (الكامل) و (الباهر) لابن الأثيرو (الروضتين) لأبي شامة و (رحلة ابن جبير) و (الأعلاق الخطيرة) لابن شداد و (زبدة الحلب) لابن العديم و (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي، وسيرة نور الدين المعروفة بـ (الكواكب الدرية) لابن قاضي شهبة

والتي لم يفعل فيها صاحبها سوى انه جمع ما قدمته المصادر آنفة الذكر عن نور الدين من روايات. وثمة مجموعة أخرى من المصادر التي اعتمدتها تلي سابقتها في الاهمية وأبرزها (مفرج الكروب) لابن واصل و (البداية والنهاية) لابن كثير و (وفيات الأعيان) لابن خلكان و (المنتظم) لابن الجوزي، وغيرها مما يجده القارئ في قائمة المصادر في آخر الكتاب.. ولم يكن تعاملي عبر هذه المصادر جميعا إلاّ مع (النصّ) التاريخي وحده.. فلا اضافات قسرية، ولا أحكام أو تصورات مسبقة، ولاتزييف للواقعة التاريخية أو قطعها أو بترها لإرغامها على الانسجام مع هذا الرأي أو تلك الوجهة، كما يفعل اليوم كثير من المؤرخين.

النصّ وحده.. وليس غير النصّ حكما في البحث التاريخي إذا ما أريد له ان يكون علميا جادا..

وكم كان بودّي ان اكتب عن الجانب الاخر من منجزات نور الدين : الانتصارات العسكرية والسياسية والاستراتيجية التي حققها ضد الغزاة الصليبيين، فالمصادر متوفرة، والروايات غنية، والنصوص كثيفة.. فضلاً عن ان البحث في هذا الجانب يمثل استكمالا طبيعيا، يغري به التسلسل الزمني، لما كنت قد كتبته من ابحاث (نشر بعضها ولم ينشر البعض الآخر) والتي تناولت في عدد من أهم فصولها منجزات المقاومة الاسلامية لمدى نصف قرن : تبدأ مع دخول الصليبيين الارض الاسلامية عام 488 هـ وتنتهي بمقتل عماد الدين زنكي عام 541 هـ والتي حققها عدد من ولاة السلاجقة في الموصل[1] وقادة الأراتقة في ديار بكر[2] وعماد الدين زنكي في الموصل وحلب[3].

كان بودّي ان اكتب عن هذا الجانب لولا ان أشبعه بحثا المؤرخون المشار اليهم قبل قليل. ومن ثم فان أي حديث (آخر) عنه سوف يجعلني اعتمد الطريق الخاطئ وهو (البدء من نقطة الصفر) في موضوع كان الآخرون قد قطعوا فيه المسافات الطوال. ولو ان أي باحث يلتزم ألاّ يكتب إلاّ إذا اطمأن انه يأتي بجديد – بغض النظر عما قد يتضمنه الجديد من قصور أو أخطاء – لما نكبت مكتباتنا التاريخية وغير التاريخية بهذا التكرار الذي تتبعثر فيه طاقات نحن بأمس الحاجة اليها لكي ترتاد الحقول البكر في تاريخنا، وما اكثرها وأوسعها..

والى الله وحده – في ختام هذا البحث – أتوجه بالحمد والشكر.. ومن القارئ المخلص الجادّ وحده، أطلب التوجيه والتسديد لما يكون قد تضمنه هذا البحث المتواضع من أخطاء.. أو هو متضمنها فعلا..

الموصل / عماد الدين خليل

الفصل الاول

رحلة في تكوين الرجل

تميّز نور الدين محمود بحشد من الصفات الذهنية والنفسية والجسدية مكّنته من تحقيق ذلك النجاح الباهر في بناء وادارة دولته الواسعة، الممتدة.. وأشار عديد من المؤرخين إلى مواقف شتى كانت بمثابة (التعبير) العملي المباشر لتلك القدرات والطاقات في ميادين العمل والحياة كافة.. ان الجدية والذكاء المتوقد النافذ الذي يصل في كثير من الأحيان حدّ الدهاء، والشعور الدائم بالمسؤولية، والمرونة في مجابهة المواقف المعقدة الصعبة، والثقافة الواسعة والفقه العميق، والقدرة على التوغل في نفوس الآخرين لاعتماد أولئك الذين يقدرون على تنفيذ برامجه التغييرية الشاملة، وقوة الشخصية، ورسم الحلول بأسلوب علمي رصين بعيد عن ضباب الدجل والخرافة، والنزعة المتأصلة للبناء والإعمار والتحضّر في إطار من الإحساس الجمالي العميق، والتمكن الفذّ من توسيع نطاق (الشعبية) بين جماهير الأمة، والتكوين العسكري الرياضي الممتاز، والشجاعة الفائقة التي تصل حد الفداء، والتجرّد العظيم تجاه إغراءات الجاه والسلطة، والتقوى العميقة التي تتقدم بالانسان المؤمن صعدا باتجاه قمم الاحسان وآفاقه الرحيبة... كانت إلى جانب صفات عديدة أخرى . سنتلمسها ونكشفها عبر بحثنا هذا . بمثابة نقاط الارتكاز التي بنيت عليها شخصية نور الدين الفذة المتفردة، وانجازاته العظيمة... بالتالي.

- 1 -

منذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه دفعا إلى الإسراع لسدّ أية ثغرة قد يتسلل منها الهواء البارد، واتخاذ الاجراءات الفورية الكفيلة بحماية الحق الإسلامي وردع المحاولات العدوانية.. " لما قتل زنكي عام 541 هـ – يقول ابن الأثير – كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات : تل باشر وما جاورها. فراسل اهل الرها، وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوما يصل اليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره اليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجدّ في قتالهم. فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجداً اليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها فلم يبق منهم الا القليل.. وأجلى من كان بها من الفرنج " [4]. كان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام 539 هـ وأمر جنده يومها بالكف فورا عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة، وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من اساليب التمييز والتفرقة الدينية.. أما وقد تآمروا – ثانية – في أخريات عهد زنكي، وثالثة بعد مقتله لاعادة الرها إلى السيطرة الصليبية الغربية، فان اجراء نور الدين بنهب المدينة وسبي أهلها وطرد بقايا الصليبيين

منها يجيء بمستوى الجد الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع ان يبقى محرّراً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة.

في عام (567 هـ) هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوءين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين. وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب اعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم، " وكان لا يهمل أمرا من امور رعيته " كما يقول ابن الأثير، إذ ما لبث ان جمع عساكره وبثّ سراياه في بلاد الصليبيين بين انطاكية وطرابلس، وقام هو بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة شمالي الشام، واجراء اعمال نهب وتخريب واسعة النطاق ؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لاعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسة – كما يبدو – إلى هدنة كهذه[5].

ويوما بلغه ما فعله جوسلين من ارسال السلاح – الذي كان قد استولى عليه في احدى معاركه مع نور الدين – الى حميه السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم، " فقام نور الدين لذلك وقعد، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا أو أسرا. لأنه علم ان هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأخلد إلى إعمال الحيلة..." [6]. وكان نور الدين – كما يقول ابن الاثير – " إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر يكفيه عشر سنين خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء "[7].

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات، والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج ان ينفذ لتوجيه ضربة أو اصابة مقتل.. كان كما يقول ابن الأثير مرة أخرى " يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، واكثر ما ملكه من بلادهم به !! " ويضرب على ذلك مثلا سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد الاناضول " فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا، وكان يقاتل به الفرنج. وكان يقول : إنما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا اليها طريق، وهو يخرج منها – إذا اراد – فينال بلاد الإسلام، فاذا طُلب انحجر فيها فلا يقدر عليه. فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج. وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه "[8].

وفي محاولته فتح دمشق أدرك ان اعتماد العنف سيستفز حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة، وأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله ويبعث اليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق اليه. وأخذ نور الدين يكاتبه مشككا إياه بنوايا عدد من أمرائه وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل باحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد. وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء[9].

وقبل ذلك، وحينما بعث اليه الفاطميون يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لاشغالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه المهمة " إن أهل دمشق[10] أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما "[11].

ويحدثنا ابو شامة عن احدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض اعلام الصليبيين وشيئا من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلا : أريد ان تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الاعلام وتأمره بنشرها في اسواق بلبيس فان ذلك مما يفتّ في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم ؛ ففعل أسد الدين ما أمر به. فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور – الوزير المصري – الإذن بالانفصال[12] . كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصن المنيطرة بالشام عام 561 هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه في سريّة من الفرسان على حين غرة من الصليبيين ؛ إذ أدرك انه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم. وما لبثت حامية الحصن ان فوجئت بهجوم نور الدين المباغت، وبعد قتال عنيف سقط الحصن " ولم يجتمع الفرنج لدفعه الا وقد ملكه، ولو علموا انه في قلة من العساكر لأسرعوا اليه، انما ظنوه انه في جمع كثير، فلّما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه "[13].

وفي بدء حكمه حلب، حينما ألحّ عليه أخوه الأكبر سيف الدين غازي حاكم الموصل ان يرحل لمقابلته وتقرير الأمور بين الرجلين بشكل نهائي ؛ تردد نور الدين في الاستجابة لطلب أخيه، ورأى في ذلك مجازفة قد تودي بإمارته، ولم يغادر حلب للقاء أخيه إلا بعد ان تأكد من موقفه الودي منه، وبعد ان تم الاتفاق بينهما على ان يتم الاجتماع خارج معسكر سيف الدين، ومع كل من الأميرين خمسمائة فارس، وان يكون اللقاء ليلا في الخابور كيلا تكون هنالك فرصة لأن يقاتل أحدهما الاخر. ولعل الذي اختار هذا الوقت هو نور الدين لأنه هو الذي كان يخشى أخاه[14].

– 2 –

وكان يحس بالمسؤولية إحساسا غامرا : المسؤولية تجاه الزمن ان يضيع، وتجاه الدم المسلم ان يُهدر، وتجاه الكرامة الاسلامية ان تداس أو تمتهن، وتجاه الارض الاسلامية ان تغزى وتقتطع.. وكان يعمل ليل نهار، وكان يقتطع من أوقات راحته البيتية.. فكانت زوجته – كما يحدثنا رضيعها – تعتزل عنه إلى ما يختص بها، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الاشغال وتارة يقرأ كتابا أتاه ويرد عليه.. وما ان يحل فجر اليوم التالي حتى يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[15].

في عام (544 هـ) حينما ورد نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين قال : لا أنحرف عن جهادهم. إلا أنه مع ذلك كان يكف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضِّياع ويحسن الرأي في الفلاحين ويعمل على التخفيف عنهم الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق " إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين.. بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم ؛ فلا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما وتعديا عليهم ؛ وهذا ما لايرضي الله تعالى ولا أحدا من المسلمين.. "[16].

في العام التالي خرج اليه أهل دمشق وكثير من اجنادها، بعد ان قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، والتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحدا من قاصديه[17]. وقد اصر نور الدين طيلة الفترة التالية، على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجا من قتل المسلمين وقال : " لا حاجة إلى قتل المسلمين بايدي بعضهم بعضا، وانا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.. "[18] فهو يعلم جيدا ان الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، واذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصا في مجاهدة هذا العدوّ.. معادلة واضحة يمكن ان تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء.. ومن ثم كانت عادة نور الدين كما يقول ابو شامة : " إنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما "[19]. لقد

كان الدم " عنده عظيما " كما يقول ابن الأثير : " لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل " [20] .

ويتبدى شعور نور الدين بالمسؤولية تجاه الارض الاسلامية، في ذلك الجواب الذي بعث به مع رسول (أيلدكز) حاكم أذربيجان الذي استنجد به بعض أمراء الموصل ضد نور الدين، والذي بعث اليه يتهدده بان لاسبيل له إلى الموصل. قال نور الدين للرسول : " قل لصاحبك : أنا أرحم ببني أخي (يعني سيف الدين غازي) منك، فلِمَ تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان، فانك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد ابتليت أنا وحدي بأشجع الناس : الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم. فلا يجوز لي ان اتركك على ما أنت عليه، فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين "[21].

– 3 –

وفي مجابهته للمشاكل والأحداث كان نور الدين، يعتمد – إذا صح التعبير – أسلوبا عقليا واقعيا للوصول إلى الحلول الملائمة.. الاسلوب الذي دعا اليه القرآن الكريم وسار على هديه الرسول ﷺ وخلفاؤه الرشدون رضي الله عنهم فحققوا من خلاله تغييرا فعليا في خارطة العلاقات والأشياء .

في عام (552 هـ) شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها فخربت الكثير من القرى والمدن وأهلكت حشدا لا يحصى من الناس.. وتهدمت الأسوار والدور والقلاع.. فما كان من نور الدين الا أن شمّر عن ساعد الجدّ وبذل جهودا عظيمة في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته " فعادت البلاد كأحسن مما كانت، ولولا ان منّ الله على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار "[22].

وفي عام (565هـ) ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً عن سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت اسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ والاحصاء. فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة اعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى ويعلن ان الظلم قد فشا وان هذا عقاب الله، أو انه اشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب.. وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك الكثير من أهليها.. فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل

ذلك ومنها إلى حماه فبعرين " وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بعرين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا. ثم أتى مدينة حلب.. فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين. ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال ما لا يقدر قدره "[23].

ان نور الدين يرفض في المرتين، وفي غيرهما مما لم نشر اليه، القول بان هذه الكوارث الطبيعية جاءت غضبا من الله !! وهو يذكرنا هنا بموقف الرسول عليه السلام يوم وفاة ابنه ابراهيم حيث كسفت الشمس أو خسف القمر فقال بعض الناس : انه الحزن على وفاة ابراهيم.. وكان جواب الرسول عليه السلام : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد من الناس !!

ان الكوارث تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والانجاز، وان الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود الأمم والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود.. اما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة.. وواصل الطريق..

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال : كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها انه ما شرع في عمارتها إلاّ " من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره " فأشار الشيخ عمر الملاء – احد صالحي المدينة وشيوخها الورعين – بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالا كثيرة.. "[24].

لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة.. ولكنه ضربها بالفعل.. بالانجاز.. وزالت الخرافة.. ولكن المسجد الكبير الذي بناه ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين.

– 4 –

وموقف نور الدين العملي من هذه الكوارث يعكس لنا جانبا آخر من تكوينه : ذلك هو نزعته العميقة المتأصلة للإعمار والبناء والانجاز.. ان الحكم الناجح في نظره هو ذلك الذي يعرف كيف يحقق اكبر قدر من العمران والتحضّر بأقل قدر من الزمن.. إنه السباق الحضاري

المعروف بين الإنسان والزمن من أجل الانجاز والبناء والتغيير، السباق الذي تحدثنا عنه في اكثر من مكان وقلنا ان كتاب الله سبحانه وتعالى قد دعانا إلى الاستجابة والمبادرة.. ووصف المؤمنين بانهم **(يسارعون في الخيرات)** وأنهم (لها سابقون).. المسارعة والسبق.. وكلتاهما تتضمنان مفهوما زمنيا واضحا.

ان الحكم الصالح في نظر نور الدين – من ثم – ما هو الا الاداة القديرة على حل هذه المعادلة البسيطة لتحقيق افضل النتائج في كافة ميادين العمل والابداع، لقد بنى الرجل الجوامع والمساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح.. كما بنى المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل.. وشجع أعمال الفروسية والنشاطات الرياضية لكسب مزيد من المهارات القتالية وتربية الجسد.. ولم تمض على حكمه سنوات فحسب حتى بدت دولته تشهد المزيد من مؤسسات الخدمات الاجتماعية : المارستانات، الملاجئ، دور الايتام، المدارس، دور الحديث، الخانات، الربط، الجسور، القناطر، الحدائق، القنوات، الاسواق، الحمامات، الطرق العامة، المخافر والأسوار، كما سنتحدث عنها بإسهاب فيما بعد. ويكفي هنا ان نشير إلى ما ذكره مؤرخ " العصر النوري " العماد الأصفهاني من ان نور الدين : " أمر بإحصاء ما في محالّ دمشق من مساجد هجرت وخربت فأناف على مائة مسجد وموضع ؛ فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفا. ولو اشتغلت باحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد. ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان، ويكفي أسوار البلد فضلاً عن المدارس والربط... "[25].

ولم يغفل نور الدين – وهو بصدد البناء والإعمار – عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطا أساسيا بالابداع.. ورجل كنور الدين تخرجه مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لايمكن الا ان يرى في العمل والتزيين.. في المضمون والشكل.. في الوقائع والجماليات ؛ وجهين لعملة واحدة.. رأى محراب مدرسة العماد الأصفهاني غير مفصّص فنفذ لعمارته فصوصا مذهبة وذهبا ثم توفي دون إتمامه[26]، وأوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها.. لكي يظل هواؤها معبقا بالروائح الطيبة والشذى العبق.. وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدّد مصارف وقفه المذكور " نصفه على تطييب جامع دمشق والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها "[27] . وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفامية، مذبحا من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام[28] . ولما دخل قلعة دمشق عام 549هـ أنشأ بها دارا عامة " في غاية الحسن " سمّاها دار المسرّة[29]..

وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميدانا " خضّره بالحشيش " وسمي الميدان الأخضر[30] .

ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات من تزيين دمشق، حاضرة دولته، وإبرازها في مظاهر البهجة والجمال.. وابن القلانسي، شاهد العيان يحدثنا عن احدى هذه المناسبات عام 552هـ حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها " بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق الإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وانواع الملاهي المختلفات. وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام "[31] لقد كان أكسسوار الحفل وديكوراته – إذا صح التعبير – مناسبة تماما امدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي !!

وتبدو نزعة نور الدين للاعمار والتحضير، اكثر ما تبدو، في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار. ونحن نرى في رواية لسبط ابن الجوزي نور الدين وهو يُقطِع أمراء العرب في جنوبي الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج[32]. وفي رواية أخرى وهو ينقل أعراب بني عباد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق.. ورغم ان هدف هذه الخطوة انصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وارشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم، كما أشارت الرواية المذكورة[33] إلاّ أنها حققت من ناحية أخرى هدفا عمرانيا واضحا.

وفي الاجراء الذكي الذي اتخذه نور الدين باعتماد (الحمام الزاجل) اعتمادا منظما في الخدمات البريدية دلالة واضحة على رغبته العميقة في اختزال الزمن ومجابهة اتساع دولته وامتدادها الجغرافي الواسع بأسلوب عملي رصين يقطع الطريق على مناورات أعدائه الصليبيين، فضلاً عن الاسراع في تقديم الخدمات البريدية الداخلية. وقد أمر نور الدين بتنفيذ أسلوبه الجديد هذا " وكتب إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها، فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلّقوه على الطائر وسرحوه، فيصل إلى المدينة التي هو فيها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى ان تصل الأخبار اليه، فانحفظت الثغور بذلك... "[34] وقد جلب نور الدين عددا كبيرا من الحمام من الموصل ووزعها في بلدان الشام ومصر، وأمر بالاعتناء بتربيتها وفق طرق فنية مدروسة كما أمر ببناء الابراج على الطرق التي تصل بين المدن المختلفة لكي تكون أشبه بالمحطات لاستبدال الحمام كي يقدر على مواصلة مهمته[35].

وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار، تعدل رواية ابن جبير، الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها، بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين. ولا ريب ان وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه لأن تغييرات جغرافيا المدن لاتقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير... يقول الرجل، مشيرا إلى الاتساع العمودي لدمشق " وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه اكثر بلاد الدنيا خلقا وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها.. وبدمشق (ما يقرب من) مائة حمّام فيها وفي أرباضها. وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها. وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة.. وأسواق هذه البلدة من احفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاما وأبدعها صنعا "[36].

وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه – كما سنرى في الفصول التالية – فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية، وما اكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد ، ويكفي ان نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك !!

– 5 –

وكان نور الدين قوي الشخصية، قديرا على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة، مائلا – بقدر – إلى هذا الجانب أو ذاك حيثما تطلّب الموقف التحرك إلى هنا أو هناك.. يصفه ابن الاثير بأنه كان " مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته "[37]، وأنه " كانت اليه النهاية في الوقار والهيبة.. شديدا في غير عنف، رقيقا في غير ضعف "[38]، ويصف مجلسه فيقول : " إنه كان كما روي في صفة مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه الا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.. وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي : " كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأن على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار واذا تكلم أنصتنا، واذا تكلمنا استمع لنا "[39]. وقال ابن كثير : " لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتاً وقوراً "[40].

كان يملك هيمنة عجيبة على موظفيه، صغيرهم وكبيرهم فكان يلزمهم بوظائف الخدمة " ولم يجلس عنده أمير من غير ان يأمره بالجلوس.. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم،

إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس اليه "[41].

- 6 -

ويقودنا هذا – في المقابل – الى ما كان يتمتع به الرجل من شعبية بين أبناء امته – وقد تناغم في تكوينه الذاتي هذا الحشد الغني من المزايا والصفات.. شعبية امتدت لكي تتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها – الى ما وراء الحدود فيكسب جماهير خصومه من الداخل، فيهز عروشهم، ويقطع جذور مواقعهم من الاعماق، ويزيحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دوما قطرة من دم فالدم المسلم " كان عنده عظيما " وليست تجربته مع جماهير دمشق بالمثل الوحيد[42].

منذ عام (543 هـ) حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق " شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه "[43] وراحوا يدعون له دعاءا متواصلا[44]، واخذ يخرج اليه خلال المراحل التالية من الحصار – عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء، ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع اصدقاء الحقيقيين كما سيتبين لنا، " فما خاب قصده " كما يقول ابن القلانسي[45] اما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه لانه منع اصحابه من العبث في مزارعهم، واعلن انه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين[46].

وفي عام (547 هـ) عندما تقدم الى دمشق لضمها الى جبهة القتال الجاد المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والاحداث[47] للخروج الى قتاله " لم يخرج الا القليل، لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج... واقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولازحف خوفا على المسلمين... "[48]، وقد عزز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا " يدعون ليلا نهاراً أن يبدلهم الله سبحانه وتعالى بالملك نور الدين "[49]، واخذ نور الدين يكاتب اهل دمشق ويستميلهم " وكان الناس يميلون اله لما هو عليه من العدل والديانة والاحسان، فوعدوه بالتسليم "[50].

وقد دخل نور الدين دمشق عام (549 هـ) في فتح ابيض لم ترق فيه دماء وما ذلك الا بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله منذ سنوات وسنوات " يقال ان امراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا اليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة اخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين "[51].

وبعد اقل من ثلاث سنين، حينما اعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من اهل دمشق.. وتبع نورالدين في حملته تلك " فتيان البلد من الاحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين ، العدد الكثير "[52].

وثمة رواية لابن الاثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع.. طلب نور الدين عام 559 هـ نجدات من امراء الاطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، " فاما فخر الدين قرا ارسلان الارتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه انه قال له ندماؤه وخواصه : على اي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود، فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك فكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد امر بالنداء في العسكر بالتجّهز للغزاة فقال له اولئك : فارقناك بالامس على حال نرى الان ضدها ؟ فقال : ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم انجده خرج اهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد من يدي !! فانه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحثّوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اتباعه واصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون علي فلابد من اجابة دعوته. ثم تجهز (هو) ايضا وسار الى نور الدين بنفسه "[53].

ان نور الدين يتعامل مع القواعد... يكسب قلوبها وتاييدها ومحبتها... يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة .. فان تردد الحكام والامراء، او جبنوا او بخلوا فان بمقدور القواعد، الاكثر ثقلا وتاثيرا، يومذاك ان ترغمهم على الطاعة والا عصفت بهم واخرجت البلاد من ايديهم.. وذلك هو الضمان الوحيد في تجنيد القدرات الاسلامية كافة ودفعها الى سوح الجهاد!!

وما من شك في ان انسجاما عميقا يتحقق بين القيادة والقواعد، ومحبة عفوية واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور.. وتعاطفاً مخلصا من اجل الاهداف الكبيرة يطبع التقابل الفعال بين هذين القطبين.. ما من شك ان هذا وذاك مما شهده عصر نورالدين محمود يمنح المؤرخ المعاصر مؤشرات ايجابية عن حكم الرجل وتفسيرا منطقيا لسبب من اهم اسباب النجاح والتوفيق في ادارة دولته.

– 7 –

وثمة التكوين العسكري الفذ لشخصية نور الدين : الشجاعة التي تصل الى حد الفدائية وعشق الموت.. مهارات الفروسية ورياضاتها العنيفة التي جعلت الرجل يستوي على ظهر جواده، وهو يقاتل ويلعب ويتمرن، وكأنه هو الجواد قُدّا من قطعة واحدة !!... القيادة الذكية البصيرة التي تعرف كيف تخطط وكيف تضرب وكيف تضمن الانتصار... اخلاقية الجندي والقائد وهو يقاتل من اجل القيم العليا، ويجاهد في سبيل انتصار كلمة الله في الارض بعيدا عن الاهداف القريبة ورفضا للالتصاق بالارض والاخلاد اليها..

ان الناس في بلاد الشام كانوا يعيشون يومذاك حالة حرب دائمة لانهم كانوا في قلب الساحة، ينامون على قرع الطبول ويصحون على صوت النفير.. كان على الرجل يومها ان يجاهد او يقعد مع الاطفال والشيوخ والعجزة... ان يظل الانسان في حالة وسط، يقاتل اذا شاء ويستريح اذا اراد، معناه ان يداس بحوافز الخيل المتصارعة القادمة من مشارق الارض ومغاربها... وحركة التاريخ التي كانت تقذف الى سدة القيادة – احيانا – رجالا لا يقدرون على حمل مسؤولية الجهاد الدائم، كانت تقذف بهم – بعد فترة قد تطول وقد تقصر – بعيدا عن مناصبهم لكي تفسح المكان للرجل الاقدر والاقوى والاشجع والاكثر التزاما...

لقد تسلم نور الدين القيادة مجاهدا من طراز اول... الجهاد بمفهومه البعيد العميق الذي يطبع اخلاقية المقاتل وفكره وعاطفته وارادته واعصابه وتكوينه النفسي والفسلجي... على السواء... وهو يذكرنا هنا بنماذج المجاهدين الذين بعثهم الله ورسوله الكريم، يومها، ففتحوا العالم واسقطوا تيجانه وغيروا خرائطه.. لقد كان هذا التكوين " الجهادي " المتميز عاملا من اكبر عوامل الانتصار الذي حققه نور الدين.. وهو يشع عفويا، نقيا، واضحا، لمن يتأمل الرجل، فيعرف كيف اصبح بحق احد الابطال الكبار في خط المقاومة الاسلامي الطويل.

قبيل معركة البابين في مصر عام 562 هـ بين المسلمين والصليبيين – وكانوا هؤلاء يفوقون المسلمين بكثير عدة وعددا – يقف رجل من اصحاب نور الدين يدعى شرف الدين برغش، وكان من الشجاعة بمكان مشهور... وقد راى تردد اصحابه، فينادي : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك... والله لئن عدتم الى الملك العادل من غير غلبة وبلاعذر تعتذرون فيه ليأخذن اقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما اخذتموه الى يومنا هذا ويقول لكم : اتأخذون اموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون الديار المصرية يتصرف فيها الكفار[54]!!

ان الرجل يرفض الهزيمة الا اذا اجتمعت اسبابها، وما اقل ما تجتمع الاسباب اذا خلصت النية، وصح العزم، واستقام الطريق، وامتلك المقاتل من الشجاعة التي تمكنه من مجابهة

المخاوف والتفوق عليها.. ولم تكن العدة او العدد في يوم من الايام هي الحكم الفصل في مصير المعارك والحروب.. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله !!

وتتوالى الروايات عن شجاعة القائد التي بعثت في لحظات الخطر والتردد حشودا من المقاتلين الشجعان عرفوا كيف ينتزعون النصر من بين فكي الهزيمة .. في عام (544 هـ) فرض نور الدين الحصار على حصن انب شمالي الشام، فاجتمع له الصليبيون بقياد امير انطاكية وساروا اليه ليبعدوه عن الحصن، فلم يتراجع امام حشدهم الكبير بل لقيهم واشتبك معهم في قتال مرير ظهر من خلاله، كما يقول ابن الاثير " من الشجاعة والصبر في الحرب.. على حداثة سنة[55]. ما تعجب الناس منه[56]، وانجلت الحرب عن هزيمة الصليبيين وقتل امير انطاكية.

وعند حصن الاتراك عام (558 هـ) هاجم الصليبيون معسكر نور الدين على حين غفلة وهو في قلة من اصحابه، فانسحب بسرعة الى حمص واخذ منها ما يحتاجه من خيام وتجهيزات عسكرية، وعاد فعسكر على بحيرة " قدس " على بعد اربعة فراسخ من مكان الهجوم. يقول ابن الاثير : " فكان الناس لا يظنون انه يقف دون حلب فكان – رحمه الله – اشجع من ذلك واقوى عزما ". وعلى بحيرة قدس اجتمع اليه كل ناج من المعركة، فقال له بعض اصحابه : انه ليس من الراي ان تقيم ها هنا، فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء الينا ونحن على هذه الحال فوبخه واسكته وقال :

اذا كان معي الف فارس لا أبالي باعدائي قلّوا ام كثروا. والله لا استظل بظل جدار حتى آخذ بثار الاسلام وثاري.

وارسل الى حلب ودمشق يطلب مزيدا من الاموال والعدد وكان في نية الصليبيين الهجوم على حمص باعتبارها اقرب المواقع اليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين قريبا منها قالوا انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ما يمنعنا[57]!!

كان في الحرب – كما يصفه سبط ابن الجوزي – ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدم أصحابه ويتعرض للشهادة ويسال الله ان يحشره من بطون السباع وحواصل الطير[58]. اصيب اخوه " نصرة الدين " خلال حصار بانياس عام 560 هـ بسهم اذهب احدى عينيه !! فلما راه نورالدين قال له : لو كشف لك من الاجر الذي اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى[59]!!

وتردد احد امراء الاطراف يوما في الاستجابة لطلب نور الدين بارسال نجدة للمساعدة على فتح حارم .. ولما ساله اصحابه عن سبب تردده ذاك اجابهم : ان نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك[60]. وتلك هي طبيعة الروح الفدائية في القتال، تبدو للقاعدين والعاجزين المترفين تهلكة يرمي بانفسهم اليها اولئك الذين اضنتهم كثرة الصوم والصلاة !!

وهو يملك في حسه وتصوره ووجدانه معنى (الشهادة) العميق.. المعنى الذي دفع اجيالا من المسلمين الى سوح الجهاد طلبا للموت، فاسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الانوف.. ولم يموتوا !! فكان نور الدين – اذا حضر الحرب – اخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه. وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم ارزقها. وسمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك، فقال له : بالله لا تخاطر بنفك وبالاسلام وبالمسلمين فانك عمادهم وان اصبت – والعياذ بالله – في معركة، لا يبقى من المسلمين احد الا واخذه السيف واخذت البلاد. فاجابه :

يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا !! قبلي من حفظ البلاد والاسلام ؟! ذلك الله الذي لا اله الا هو[61]!!

وثمة روايات ووقائع كثيرة اخرى تمنحنا مزيدا من الشهادات على شجاعة الرجل، وتمتد لكي تغطي مساحة الثلاثين سنة التي قاد فيها امته في ميادين الحرب والسلم. فاذا ما استحضرنا الى الاذهان، ما سبق وان ذكرناه، من سعة حيلة الرجل، ودهائه وحذره، وذكائه، وحسن رأيه في مجابهة المشاكل، وهي تعد بحق ضوابط او فرامل الشجاعة البشرية كيلا تتحول بين يدي القيادة الى اندفاع لا هدف وراءه ، وكيلا يغدو الفداء تهورا لا طائل تحته.. ادركنا حجم المكاسب التي جنتها حركة المقاومة في بلاد الشام من شجاعة قيادتها وفدائيّتها، وتذكرنا عبارة ابن الاثير في هذا الصدد وهو يصف نور الدين بقوله : " واما شجاعته وحسن رايه فقد كانت النهاية اليه فيهما، فانه كان اصبر الناس في الحرب، واحسنهم مكيدة ورايا، واجودهم معرفة بامور الاجناد واحوالهم. وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعا كثيرا من الناس لا احصيهم، يقولون : انهم لم يروا على ظهر الفرس احسن منه، كانه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل "[62]. وهذا ينقلنا الى طرف اخر من تكوين الرجل المجاهد.. والقائد الفارس ..

– 8 –

فقد كان نور الدين " رياضيا " من طراز اول، يعشق اللعب عشقا يفوق الوصف. كان مولعا بضرب الكرة " البولو "[63] كما يقول العماد الاصفهاني احد معاصريه، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع[64] وكان كما يصفه ابن الاثير " من احسن الناس لعبا بالكرة واقدرهم عليها، لم ير جوكانا[65] يعلو راسه، وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس، ويتناولها بيده من الهواء ويرميها الى اخر الميدان. وكانت يده الاخرى لا ترى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب "[66].

وقد فسر الممارسة الرياضية تفسيرا فروسيا رائعا في جوابه على اعتراض احد اصدقائه الزهاد عندما كتب اليه يقول : ما كنت اظن انك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية.. وكان جوابه بخط يده " والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، انما نحن في ثغر والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس اذ يقع صوت (الحرب) فنركب في الطلب، ولا يمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا، شتاءا وصيفا، اذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً[67] لا قدرة لها على ادمان السير في الطلب، ولامعرفة لها ايضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها وتتعدد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة "[68].

وكانت رحلات الصيد الممتعة رياضته الاخرى.. رياضة تحمل من الجد جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد.. ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم يومها (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي) وقال : (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا).. وليست مهارات الصيد سوى محاولة، من بين عديد من المحاولات، لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان. واسامة بن منقذ يحكي لنا في مذكراته، وباسلوبه المعروف في (الاعتبار) والذي يقرب من العامية السقيمة، بعض مشاهد الصيد التي رافق بها نور الدين.. " شهدت الصيد – يقول ابن منقذ – مع الملك العادل نور الدين رحمه الله، فحضرته ونحن بارض حماة، وقد جلبوا ارنبا فضربها بنشابة كشماء وقامت وسبقت الى حجر ودخلته، فركضنا خلفها ووقف نور الدين. وناولني (احدهم) رجلها، قطعتها النشابة من فوق العرقوب، وشقت جوفها قرنة النصلة فوقع منها بيت الولد !!

وسبقت بعد هذا (ودخلت الجحر) فامر نور الدين (بعض اصحابه) فنزل وخلع خفافه ودخل خلفها، فما وصل اليها !! وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه (اثنان) شقه واطمرهم بالتراب.. ففعل، فتحركوا وعاشوا !! "[69].

ويواصل ابن منقذ حديثه فيقول : " وحضرته يوما وقد ارسل كلبة على ثعلب، ونحن على قرا حصار بارض حلب، فركض خلفه وانا معه، فلحقت الكلبة اخذت ذنب الثعلب، فرجع اليها براسه فعض خيشومها. فصارت الكلبة تعوي ونور الدين – رحمه الله – يضحك. ثم خلاها الثعلب ودخل جحرا، فما قدرنا عليه "[70].

وثمة رواية اخرى يحدثنا بها الرجل فيقول : " جاءه – اي نور الدين – يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمال البلد باز، فقال (لاحد اصحابه) : قل لفلان – يعنيني – ياخذ هذا الباز يلعب به.. فقلت له : ما احسن اللعب.. فقال انتم في الصيد ما كنتم تزالون. ما تحسن تصلح الباز ؟ قلت : يا مولاي ما كنا نصلحها نحن، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا.. وما اخذت الباز "[71].

ظل نورالدين الذي يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الاخير الذي اودى به بعد ايام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرر فيه ختان ولده الملك الصالح اسماعيل حيث اقيمت الاحتفالات ورددت الاناشيد.. وخرج الرجل مع بعض اصحابه الى الميدان الاخضر شمالي دمشق، لممارسة العديد من العاب الفروسية " كطعن الحلق ورمي القبق "[72]، كما يقول العماد الاصفهاني.. فما غادر الساحة الا وهو يعاني الما حادا وسرعان ما اودى بحياته بعد قليل[73].

– 9 –

أما عن نور الدين العالم، المثقف، فان الحديث يطول.. لقد شغلت هذه المسالة جانبا كبيرا من حياته وتكوينه.. كان لتعشّقه العلم يسعى وهو في قمة السلطة " الى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم.. "[74]، وكان العلماء عنده في المنزلة الاولى والمحل العظيم[75]، يحضرهم الى مجلسه " فيدنيهم ويتواضع لهم، واذاقبل احدهم اليه يقوم له مذ تقع عينه عليه.. ويجلسه معه.. ويقبل عليه بكليته تعظيما وتوقيرا واحتراما "[76]، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع اليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[77].

كان نور الدين عارفا بمذهب ابي حنيفة، ملتزما به، من غير تعصب منه ولا تحيز، فالمذاهب عنده – كما اجمع المؤرخون – كلها سواء " والانصاف سجيته في كل شيء "[78]. سمع الحديث حتى حصل على الاجازة العلمية التي تتيح له ان يسمعه للاخرين..

ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة منه في تعزيز مكانة (السنة) ونشرها بالحفظ والاداء والتحديث[79] كما الف كتابا في الجهاد[80]. واوقف كتبا كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية، متميزا بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين[81].

ونظرا لارتباط هذا الجانب من تكوين الرجل بالسياسات التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته فاننا نحيل القاريء الى تفاصيله هناك في الفصل الرابع من هذا البحث...

- 10 -

ونواصل التجوال عبر منحنيات شخصية نور الدين ودروبها وملامحها.. وعندما نقف امام تجرد الرجل وتقواه .. نكون قد (حضرنا) بمزاجهة اعظم التجارب واثقلها حجما واشدها تركيزا.. مساحة ناصعة ، مؤثرة، من اروع المساحات في تكوين الشخصية التي بين ايدينا، واكثرها ضوءا وعطاءا.. ومن ثم يطول الوقوف..

ان التجرد العظيم الذي يمارسه الرجل، إنمّا يمارسه وهو في قمة السلطة والجاه والاغراء.. وانه لضغط ساحق يتطلب دفعا هائلامن داخل الشخصية البشرية، من نسيج الذات لحمة وسدى، لتحقيق التوازن المطلوب، والخروج من التجربة الصعبة بنجاح.. اننا هنا نستحضر في اذهاننا، صورة عمر بن عبد العزيز وهو يمارس ببطولة نادرة الامتحان العسير، ويخرج منه بانتصار يشرف الانسان المسلم في كل زمان ومكان.. رغم انه فقد عبر ساعاته الصعبة ولحظاته الباهظة، زهرة عمره، وسني شبابه، وهو في العنفوان.. بل انه فقد حياته نفسها ثمنا للفوز الذي حققه للعقيدة والتاريخ والشخصية البشرية على السواء.

ومن وراء عمر يُستحضر عدد اخر من الرجال الكبار الذين صنعهم كتاب الله وصاغهم رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو الحشد الذي يقف الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه في قمته ولا ريب، يضرب مثلا باهرا على قدرة (المسلم) على التجرد وهو في قمة الدنيا.. يطل من سقفها العالي، وما فوقه الا الله.. (ايها الناس – قال الرسول ردّوا عليّ ردائي، فو الذي نفس محمد بيده، لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعما، لرددته عليكم، ثم ما الفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا) (ايها الناس – قال الرسول بعد ان انتزع وبرة من جمل يقف قريبا منه – والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة ؛ الا الخمس والخمس مردود عليكم..). ويوم اشتكى اليه اصحابه الجوع، وكشفوا عن بطونهم التي ربطها كل منهم بقطعة من حجارة، كشف هو صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقد عصبها بقطعتين !!

اما ابو بكر.. وعمر.. وعثمان.. وعلي.. وسائر رجالات الجيل الاول الذي عايش تجربة نبيه وقائده.. فتلتمع صور تجارب تجردهم العظيم في الذهن ضوءا كثيفا مركزا كالشهب الثاقبة في ليلة شديدة الحلكة، عميقة الظلام، وقد وقفنا عند بعضها في غير هذا المكان[82].

إن التجرد يعني في نهاية التحليل : قدرة المسؤول المسلم على مجابهة ثقل السلطة واغراءاتها، وابوابها المشرعة التي تنفتح من حيث لا يشعر الانسان احيانا على الاخذ الذي يزداد ويزداد حتى يغدو بمرور الايام سرقة وسلبا وابتزازا.. وترفا وتخمة.. وفسادا.. وتنقفل على العطاء الذي يشح ويشح حتى يغدو جبنا وبخلا وجبروتا، وطغيانا... اننا هنا – اذن – بمواجهة ما يمكن تسميته (باخلاقية العدل الاجتماعي)...

ان المسؤول المسلم اذا ما وصل السلطة يوما فعليه ان يتحقق بهذه الاخلاقية ان ينقلب على ذاته، ان يغير في تركيبها الذاتي مؤشراتها ودوافعها ومنازعها..ويسكت من جهة اخرى، نزواتها وشهواتها.. وان يقابل التاريخ متجردا من هذا كله، عاريا من كل البطائن والستائر التي قد تحجب او تخفي.. قديرا على العطاء الدائم.. صامدا بوجه شياطين الاخذ والاغراء..

وتقوى الله هي القوة الباطنية التي تمنح المسؤول المسلم القدرة على المجابهة الصعبة بالتغيير الذاتي الدائم والتبديل المستمر.. وتعطيه امكانية استجاشة كل الدفوع الممكنة في باطن الشخصية البشرية لمجابهة الضغوط الخارجية الباهظة وحل المعادلة الصعبة، واستمراء الجهاد الشاق، والتعب، والنصب، والارهاق..

وبدون هذا التجرد الذي تصنعه التقوى، بدون اخلاقية العدل الاجتماعي هذه.. لن يتحقق عدل ابدا .. لانه اذا انكسرت همة القيادة العقائدية ازاء المال والاغراء، اذا انشرخت القمة واتسع شرخها ؛ فليس لنا ان نتوقع حقا وعدلا وليس لنا ان ننتظر فرصة سحرية، تاتينا بنتائج، غابت شروطها الاساسية في بطون القيادة وفروجها !!

ان السقيم لا يمنح المرضى صحة وعافية.. والبئر المرة العفنة لا تنضح حلواً صافيا.. لا تنضح الا المر والكدر !!

- 11 -

ما هي الابعاد الحقيقية لتجربة نور الدين في (التجرد) والى اي مدى ذهب الرجل في (تقواه) وهل قدر في نهاية الامر على (حل) المعادلة الصعبة والخروج من المحنة بسلام ؟ اسئلة شتى لن يكون الا للوقائع نفسها ان تجيبنا عنها لكي تمنح القناعة والر ضا والاطمئنان.

يسأل ابن الاثير المؤرخ هذا السؤال : " اذا قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى اليه الأموال الكثيرة ؟ " ويجيب " ليذكر نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، مع اتساع ملكه، وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجزيرة العرب جمبعها من حدود الشام الى العراق، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين " ويخلص اخيرا الى هذه النتيجة التي يعدها مفتاحا لتفسير هذه المواقف جميعا " انما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها "[83].

هل كان نور الدين محمود خالي اليد وهو يحصل في معركة واحدة مع العدو الصليبي على مبلغ قدره ستمائة الف دينار ؟ كلا بطبيعة الحال، فهل قدر على ان يخلي قلبه من محبة الدنيا ؟!

ثمة حشد من المؤرخين بعضهم معاصر لنور الدين وبعضم قريب منه يقدمون لنا الاجابة عن هذا السؤال :

العماد الاصفهاني : كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية اهل الذمة مبلغ الفي قرطاس[84] يصرفه في كسوته ونفقته وماكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى اجرة خياطه وطباخه.. من ذلك المقرر المعين النزر. ثم يستفضل ما يتصدق به في اخر الشهر ويفّضه على المساكين واهل الفقر.

واما ما يهدى اليه من الثياب والالطاف وهداياالملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل، لا يتصرف في شيء منه بل يعرض نظره عنه واذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضي ليحصل اثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة[85].

ابن الاثير : احضر نور الدين الفقهاء واستفتاهم في اخذ ما يحل له، فاخذ ما افتوه بحله، ولم يتعده الى غيره البتة، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير او ذهب او فضة[86].

وحكي لي عنه انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت اليها، وبينما هم معه في حديثها، اذ قد جاءه رجل صوفي فامر له بها، فقيل له : انها لا تصلح لهذا الرجل، ولو اعطي غيرها لكان انفع، فقال : اعطوها له فاني

ارجو ان اعوض عنها في الاخرة، فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار او سبعمائة، وانا اشك انها كانت تساوي اكثر[87].

وقال رضيع الخاتون : زوجة نور الدين : " انها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها، فأرسلتني اليه اطلب منه زيادة لها في وظيفتها (اي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال : من اين اعطيها ؟ اما يكفيها مالها ؟ والله لا اخوض نار جهنم في هواها !! ان كانت تظن ان الذي بيدي من الاموال هي لي فبئس الظن !! انما هي اموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق – ان كان – من عدو الاسلام، وانا خازنهم عليها فلا اخونهم فيها، ثم قال، لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا قد وهبتها اياها فلتاخذها !! قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل، نحو عشرين دينارا[88].

ابن كثير : كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الانفاق على اهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل : انه كان ادنى الفقراء في زمانه اعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[89].

وكان عمر الملاّء رجلامن الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه. وكان يرسل اليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه[90].

سبط ابن الجوزي : كان اذا اقام الولائم العظيمة لا يمد يده اليها انما ياكل من طبق خاص فيه طعام بسيط[91].

وحدثني رجل اخر من اهل حران قال : خرج نور الدين يوما من حرّان قاصدا الرها فاجتاز على نهر، وفقير نائم على جنب النهر ، فوقف وسلم عليه، فرفع الفقير راسه وقال بيده كذا، معناه في اي شيء انت ؟ فحرك نور الدين اصبعا واحدا، فحرك الفقير اصبعين.. ومضى نور الدين باكيا فقيل له ما هذا ؟ قال : اشارالي الفقير وقال : في اي شيء انت هذا كله ؟ فقلت : من اجل رغيف واحد فاشار الي باصبعيه، فانا آكل في كل يوم رغيفين وانا مثلك !! [92].

اما مقر سكنى حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت دارا متواضعة تطل على النهر الداخل الى القلعة من الشمال، الحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة. فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الاخشاب " فهو يبيت فبه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح ". ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الاخشاب[93].

- 12 -

وهو يتفوق بتقواه على اغراءات الجاه واللقب والسلطان.. يتجرّد عن كل ما يمكن ان يقطع الحبل المتين بينه وبين طرفي القضية : الله.. والامة.. ثمة حشد زاخر من الالقاب كانت الخلافة العباسية الاسيرة في بغداد تمنحه لكبار القادة والمجاهدين لانه لم يكن بمقدورها ان تمنح شيئا اخر.. لكن رجلا (فاعلا) كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوف ان يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف.. وخوف الى ان تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيرا ما انتهى اليهما القادة والعاملون .. اما نور الدين الذي علمه التجرد كيف يكون الرفض، فانه يتمتّع حتى النهاية عن الذهاب مع الاغراء الى ما يريد الشيطان لا الى ما يريد الله..

تلقى يوما من بغداد هدية تشريفية عباسية ومعها (قائمة) بالقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد ".. اللهم اصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الاسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الامامة واثيرها، فخر الملة ومجدها منصف المظلوم من الظالمين ناصر الدولة أمير المؤمنين .. " !!

لكن نور الدين اسقط جميع الالقاب وطرح دعاءً يقول اللهم واصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي !! "[94].

وثمة رواية اخرى تمنحنا المزيد من الاضواء على الموضوع وتتضمن كلمات وجملا من انشاء نور الدين نفسه.. روي انه كتب رقعة بخطه الى وزيره خالد بن القيسراني – بعد ان استفزته كثرة الالقاب – يأمره ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر. وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه. فكتب ابن القيسراني كلاما ودعا له فيه ثم قال : وارى ان يقال على المنبر : اللهم واصلح عبدك الفقير الى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لاعداء دينك، ابا القاسم محمود بن زنكي. فكان جواب نور الدين : " هذا لا يدخله كذب ولا تزيد، وكتب بخطّه في اعلى الصفحة : " مقصودي ان لا يكذب على المنبر. انا بخلاف كل ما يقال. افرح بما لا اعمل ؟ " والتفت الى وزيره قائلا: " الذي كتبت به جيد. اكتب به نسخا الى البلاد "[95].

وفي ساحة الحرب.. حيث الموت على بعد خطوات.. وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعا واشفاقا.. وتقفه تقواه العميقة في حضور مؤثر امام الله حيث تتمزق في اعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من اجل تمزيقها لكي يقف

نقيا.. عاريا.. في الساحة التي عشقها وتمناها.. ليس ثمة في الحرب موقف وسط : اما ان يكون القائد جبّاراً في الارض.. او صديقا..

عندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعددا انفرد نورالدين تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم اولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم اعداؤك، فانصر اولياءك على اعدائك. ايش فضول محمود في الوسط؟ يقول ابو شامة : يشير نور الدين هنا الى انك يارب ان نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلاتمنعهم النصر بسبب محمود ان كان غير مستحق النصر. وبلغني انه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا.. من هو محمود.. حتى ينصر ؟ [96].

وتحضرنا هنا – ثانية – رواية ابن الاثير حيث يبدو نور الدين لا فدائيا فحسب ولكن فقيها بقدر الله، متبصرا بدور الانسان في حركة التاريخ، عالما ان ارادة الله إذا شاءت تهيأت لها الاسباب.. ولن يعجزها شيء.. ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين..فان رجلا اخر منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق ومن ثم يستوي – عبر هذه الرؤية – هذا القائد أو ذاك !!

كان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم ارزقها. وسمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين، فانك عمادهم وان اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا واخذه السيف... ويجيئه جواب الرجل الخبير : يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ بلاد الاسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الا هو[97].

الله الذي هو الاول، والاخر، والظاهر والباطن.. وما الناس، ابتداءا من اصغر جندي فيهم الى اكبر قائد، الا ادوات (فاعلة) في يده يحركها وفق خرائطه المعجزة لتحقيق كلمته في الكون... الله.. وكفى...

كانت دمشق جنة الدنيا – يومذاك – ترغم الناس على ان يخلدوا اليها حينا بعد حين يستجمّون في ظلالها، ويستروحون نسائمها، ويشربون ماءها الحلو وياكلون ثمرها... وكان احرى بنور الدين ان يؤوب – بعد النصب الطويل – الى قاعدته ليرتاح.. لكنه يرفض هذا لان ساحة اخرى تناديه وتمنحه المتعة كذلك.. ساحة الجهاد.. يحدثنا العماد الاصفهاني فيقول : " حضرت عند نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وازهار رياضها.. وكل منا يمدحها ويطريها. فقال نور الدين : انما حب الجهاد يسليني عنها فما ارغب فيها "[98].

فما ارغب فيها !! لكأننا نحس بنظرات نورالدين وهي تجوس في منحنيات نفسه ودروب وجدانه، تفتش عن بقايا الرغبة لكي تستأصلها من مكانها.. فلا يبقى هناك الا احساس غامر

بتعشق الجهاد.. حيث يظل الانسان يقاتل.. معلقا (وجوده) كله باحدى اثنتين : النصر او الجنة!!

ومرة اخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوما من دخوله اياها عام (566 هـ) فيساله اصحابه : انك تحب الموصل والمقام بها، ونراك اسرعت العود ؟ فيجيب : قد تغير قلبي فيها فان لن افارقها ظلمت !!! ويمنعني ايضا انني ها هنا لا اكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد[99].

- 13 -

لقد صنع الرجل بتقواه العميقة تجرده العظيم.. فكيف صنع تقواه ؟ باي وقود نقي اشعل فتيلة الروح فمنح تجربته الذاتية الضوء الذي تجاوز بها مواقع الظلمات ؟

قال ابو شامة : " سمعت ابن شداد يقول : بلغنا باخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم انه كان اكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في اوقاتها بتمام شرائطها واركانها وركوعها وسجودها.. وكان كفار القدس يقولون : ان نور الدين له مع الله سر !! فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا "[100]، وقال : " كان من عادة نور الدين انه كان ينزل الى المجلس بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح "[101].

و قال ابن الاثير : " حدثني صديق لنا بدمشق – كان رضيع الخاتون زوجة نورالدين – فقال : كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة، وله اوراد في النهار، فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة "[102]!!

وقال ابن كثير : " كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للاثار النبوية، محافظا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة.. صموتا وقورا "[103].

انها اطالة (التعبد) اذن.. التعبد الخالص الدائم العميق الذي اراد له الله سبحانه ان يكون طريق التقوى وروحها في الوقت نفسه.. ولن يكون ذلك الا ان يمارس ذلك في اطار من (الذكر) الذي يحقق التواصل مع حقيقة الالوهية والتجاوب مع حركة الكون والموجودات.

ويمضي نور الدين في تعبده آناء الليل واطراف النهار.. لكنه ليس ذلك التعبد السالب الذي يدفعه الى الفرار من المسؤولية، بل ذلك الذي يضعه في قلب المسؤولية وهو اعمق وعيا واشد خشية وامضى عزيمة واقدح ذكاء.. ان المؤرخ ابن قاضي شهبة، في اشارة عابرة له، يسلط

الضوء على هذه المسالة : " كان نور الدين كثير الصيام، وله اوراد في الليل والنهار، وكان يقدم اشغال المسلمين عليها ثم يتمم اوراده "[104].

يقدم اشغال المسلمين عليها ثم يتمم اوراده.. هذا هو المنطوق الذي علمنا اياه الاسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة ايجابية تضرب في اعماق الناس فتغير نفوسهم، وتمتد الى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته..

يمضي نور الدين في تعبده حتى تنكشف له حقيقة الحياة الدنيا وتتبين مواقع الموت القريبة.. ويظل حسه وذهنه ووجدانه مطبوعا بالرؤية الرصينة للكون والحياة والاشياء.. لاتعتمها اغراءات السلطة، ولا تحيطها بالضباب والظلمة نزعات الجاه والقوة والسلطان.

حكى الامير بهاء الدين على بن الشكري، وكان قد صحب نورالدين منذ ايام الصبا وانس به، قال : " كنت معه يوما في الميدان – بمدينة الرها – نسير والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا ظلنا، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا. فاجرى فرسه وهو يلتفت الي وقال لي : اتدري لأي شيء اجري فرسي، والتفت ورائي ؟ قلت : لا. قال قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممّن طلبها وتطلب من هرب منها "[105].

وفي اول ايام العيد المبارك من عام (569 هـ) حينما خرج الى الميدان الاخضر شمالي دمشق لبدء الاحتفالات هناك، تقدم منه احد كبار امرائه : همام بن مودود وساله : ترى.. هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ اجاب نور الدين : هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة[106]!!

بلى.. ان السنة بعيدة على الذين يقدرون على تصور الحدود الهشة، الخفية التي لا تلمس ولا ترى.. بين الحياة والموت.. السنة بعيدة.. وقبل ان يستكمل الشهر الذي خمنه الرجل التقي موعدا لرحيله.. قبل ان يستكمل دورته، كان الرجل قد فارق الحياة بعد ان سبر غورها وهو يعمل في قمتها.. على سقفها العالي !!

- 14 -

ولد نور الدين ابو القاسم محمود عند طلوع شمس السابع عشر من شوال سنة (511 هـ) بحلب، ونشا على الخير والصلاح وقراءة القران والعبادة وقلة المخاالطة للجند، وكان ابوه عماد الدين زنكي يقدمه على بقية اولاده ويرى فيه مخايل النجابة[107].

كان اسمر اللون، طويل القامة، واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، ذا لحية خفيفة في حنكه.. مهيبا.. متواضعا.. عليه جلالة ونور[108].

تزوج عام (541 هـ) ، الزواج الذي لم تكن له من ورائه جارية ولا سرّية. من عصمت الدين خاتون ابنة الاتابك معين الدين انر حاكم دمشق، بعد ان ترددت المراسلات بين الرجلين، " واستقرت الحال بينهما على اجمل صفة، وتاكدت الامور على ما اقترح كل منهما " وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وما ان تم اعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائدا وبصحبته ابنة معين الدين[109].

خلف نور الدين من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما الصالح اسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شابا لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض الم به عام 577 هـ، واحمد الذي ولد بحمص عام 547 هـ، ثم توفي في دمشق طفلا[110].

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل الى زوجته وابنه الاكبر.. فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فاصبحت وهي غضبى ؛ فسألها نور الدين عن امرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها.. فامر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حيذاك لقيام الليل ، ومنح الضاربين اجرا جزيلا[111]. وصفها المؤرخون بانها كانت من احسن النساء واعفهن واكثرهن خدمة، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها اوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم[112].

وعرف عن الصالح اسماعيل تقواه العميقة والتزامه الاخلاقي المسؤول.. حتى لقد رفض الاخذ براي الاطباء في شرب شيء من الخمر عندما الحت عليه علة القولنج التي اودت بحياته. وقال : لا. حتى اسال الفقهاء، فلما افتوه بالجواز لم يقبل وسال كبيرهم : ان الله تعالى قرب اجلي، ايؤخره شرب الخمر ؟ قال : لا. فاجابه : فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم عليَّ[113]!!

في صبيحة يوم الاثنين ثاني ايام عيد الفطر المبارك من عام 569 هـ خرج نور الدين الى الميدان الاخضر، شمالي دمشق لممارسة الالعاب والتمارين الفروسية والاحتفال بختان ولده الصالح اسماعيل، فما عاد الى بيته الا وقد تمكن منه مرض الخوانيق[114]، وراح يضيق الخناق عليه، وهو معتزل في بيته الخشبي المتواضع شمالي القلعة[115].

يقول ابن الاثير : " حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي – وهو من حذاق الاطباء – قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا عليه، وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته. فكان يخلو فيه للتعبد في اكثر اوقاته، فابتدا به المرض فيه، فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه وراينا ما به قلت له : كان ينبغي الا تؤخر احضارنا الى ان يشتد بك المرض الى هذا الحد. فالآن ينبغي ان تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح.. وشرعنا في علاجه فلم ينجح فيه الدواء، وعظم الداء "[116]. وما لبث ان توفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال " ووقف الناس يضطربون ويضطرمون ".. ودفن في بيته ذاك الذي كان يلازم الجلوس والتعبد والمبيت فيه، ثم نقل الى مقبرة تجاور مدرسته التي بناها للحنفية عند باب سوق الخواصين في الشارع الغربي[117].

***

الفصل الثانـي

في ميدان الادارة والقضاء

- 1 -

اعتمد نور الدين في ادارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال كان يعرف كيف ينتقيهم بعيدا عن انتماءاتهم الاجتماعية. وناظرا الى قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى جماهير المسلمين. وكان يعرف كيف يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة ويوقفهم في الوقت المناسب منزلا بهم العقاب العادل[118]. وكان كما يصفه العماد الاصفهاني " ذكيا المعيا، فطنا لوذعيا، لا تشتبه عليه الاحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال "[119] ولم يتقدم لديه الا ذوو الفضل والقدرة على الانجاز الامين المسؤول[120]، بغض النظر عن الاعتبارات الشكلية التي يرفضها نور الدين اشد الرفض، حتى ان عددا من كبار موظفيه كان من الخدم والعبيد وعددا اخر كان من غير الشاميين، ممن جاءوا من أقاصي المشرق والمغرب، فولوا أعلى المناصب وصعدوا قدما صوب ارقى الدرجات لانهم جاؤوا الى نور الدين وهم يملكون كفاءات الادارة الناجحة التي اشرنا اليها قبل قليل.

ويبدو ان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره، والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة، وجاء الايوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول. لكن نور الدين اكد على مؤشر اساسي في ميدان الادارة ذلك هو ان كفاءة اجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز او تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على (الرجال) انفسهم الذين يعهد اليهم بتسييرها. ومن ثم فاننا نجد نور الدين يملأ اجهزته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم – في الاغلب – يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما.

في البداية، عندما قتل ابوه عماد الدين زنكي عام (541 هـ – 1146 م) وجد في بعض رجالاته المتقدمين في ميدان الادارة المدنية والعسكرية ساعده الايمن الذي اعتمده في الوصول الى الحكم في حلب وتثبيت اركان امارته الفتية هناك، اتصل به اسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له : " اعلم ان الوزير جمال الدين الاصفهاني – اكبر وزراء زنكي – قد اخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم اخيك (سيف الدين غازي) وتمليكه الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر، وقد انفذ الي يغريني علىاللحاق به، فلم استجب لطلبه، وقد رايت ان اصيرك الى حلب فتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام. وانا اعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان من ملك الشام ملك حلب. ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشر ق ". فما كان من نور الدين الا ان اصدر امره بان ينادى ليلا في عساكر الشام للاجتماع، وانطلق

من ثم الى حلب فدخلها في السابع من ربيع الاول واعتمد اسد الدين شيركوه الذي اصبح اشبه بوزيره الاول[121].

ولم يكن دور كل من سيف الدين سوار، القائد العسكري المشهور الذي عمل نائبا لزنكي في حلب، وصلاح الدين الياغسياني، رجل زنكي المعتمد واحد كبار مستشاريه [122] ليقل عن دور شيركوه في اسناد مركز نور الدين في الايام الفاصلة التي اعقبت مقتل زنكي، وتمكينه من انشاء امارته في حلب[123] وفي عبارة لابن العديم يقول فيها إن الياغسياني " كان يدير امور نور الدين في حلب ويقوم بحفظ دولته " في ايامها الاولى[124] ما يوحي بان الرجل ظل على ما كان عليه ايام زنكي : مستشار الامارة الاول واحد كبار اداريها. كما ان نور الدين اتصل عام (544 هـ) بجمال الدين الأصبهاني، كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازي من بعده وصاحب الخدمات الادارية الممتازة، وحاول اقناعه للالتحاق بخدمته قائلا له : " لابد من ان تكون عندي فلي من الحق مثل ما لاخي – غازي – وانا احوج اليك منه " فاجاب الرجل : " انت فيك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الاعداء ما عند اخيك، لان عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، واعداء اخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، واذا كنت عند اخيك فالنفع عائد اليك "[125] فكف نور الدين عن المطالبة به .

ويبدو ان نور الدين لم يشا ان يجعل جل اعتماده على العناصر الادارية المخضرمة وراى ان يطعمها بعناصر جديدة اكثر ملائمة وفهما لاهدافه اسوة بما يفعله مؤسسو الدول في اعادة تنظيم اجهزتهم الادارية وترشيح العناصر الاكثر تقبلا للوضع الجديد وتجانساً معه، وقد كان مجد الدين محمد ابو بكر بن الداية، شقيق نور الدين في الرضاعة، واخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر الذي لم يبرز في ميدان الادارة كمال برز اخوته ربما لصغر سنه – على رأس هذه العناصر دون شك، حيث استناب نور الدين اولهم في حلب وولاه كما يقول ابن ابي طي " جميع اموره وجميع مملكته "[126] واصبح استنادا الى ذلك رجل الدولة الاول بعد نورالدين منذ عام (541 هـ – 1146 م) وحتى وفاته عام (565 هـ – 1169م).

ويتحدث ابن العماد الاصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين واخوته في امارة نور الدين فيقول : " كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى ان ملك الشام بعد والده ففوض اليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولا يعقد الا برأيه " وكان يسكن قلعة حلب. وقد سلّمت قلعة جعبر وتل باشر لاخيه الاصغر سابق الدين عثمان. وحارم لاخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة مواقع عديدة اخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه[127]. وعندما هدمت الزلازل شيزر عام (552 هـ – 1157 م) واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلّمها الى مجد الدين[128].

ويؤكد سبط ابن الجوزي ان مجد الدين واخوته " كانوا اعز الناس على نور الدين وكان قد اسكنهم معه في قلعة حلب ولا يصدر الاعن رأيهم "[129].

ويكاد المؤرخون يجمعون على ان مجد الدين احسن تدبير المهمة التي عهدت اليه وانه كان عند حسن الظن[130]. وظل طوال خمسة عشر عاما يتمتّع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الامور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية[131]. وعندما توفي عام (565 هـ – 1169 م) نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير اخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد، حزن نور الدين حزنا عميقا وقال وهو يبكي : " لقد قصت جناحاي "[132] وسرعان ما عهد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى اخيه شمس الدين علي[133] الذي غدا بمرور الوقت " اكبر الامراء النورية في حلب " [134] اما اخوه الاخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عسكره[135].

وفي عام (569 هـ – 1173 م) – السنة التي توفي فيها نور الدين – كان بنو الداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماما واصبح " امرها اليهم، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده "[136]. وكان شمس الدين علي قد عهدت اليه اموراالجيش والديوان، وعهدت الشحنكية الى اخيه بدر الدين حسن، وكانت بيد هؤلاء الاخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب[137].

ولا يذهبن الى الظن ان تفويض امور حلب الى بني الداية يشير الى نوع من الضعف الاداري او الاتكالية في موقف نور الدين، فمن جهة راينا قوة شخصيته وهيمنته على اجهزة الدولة وموظفيها وممارسة الامور بنفسه[138]، ومن جهة اخرى كانت ساحات الجهاد قد استغرقت معظم وقته مما لم يتح له معها التفرغ الكامل للاعمال الادارية الداخلية، ومن جهة ثالثة لم يكن بنو الداية يمارسون صلاحياتهم الواسعة إلاّ في اقليم واحد هو اقليم حلب، وثمة اقاليم ومدن اخرى كان رجال اخرون واسر اخرى يمارسون صلاحياتهم فيها بما لا يقل في اتساعه عما فوض به بنو الداية، لا بل ان الصلاحيات الشاملة التي عهدت الى العماد الاصفهاني كانت اكثر بكثير مما عهد الى بني الداية. وسنرى، فضلاعن هذا وذاك، ان بني الداية لم يكونوا هم اول واخر من برز في ميدان الادارة بل برزت معهم، وطيلة العصر النوري، اسماء لم تكن لتقل عنهم شهرة وانجازا... ولابن ابي طي تفسير لهذه الخطوة التي خطاها نور الدين بصدد اعتماد مجد الدين بن الداية، لا يستقيم ومجريات الامور، فهو يقول : انه لما بلغ نورالدين اتفاق نجم الدين ايوب مع صاحب دمشق من آل طغتكين، خاف ان يفسد عليه اسد الدين لصالح صاحب دمشق بحصول اخيه نجم الدين عنده فمال الى ابن الداية حتى ولاه جميع اموره.. فشق ذلك على اسد الدين "[139] ونحن نعرف ان علاقة اسد الدين بنور الدين ظلت كما هي قوة وانسجاما، بل انها اخذت تزداد مع الايام حتى بلغت قمتها في ترشيح اسد الدين للاتصال باخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلما بعد اذ تبين استحالة اخذها عنوة. وقد توجت هذه الاتصالات

الناجحة بدخول نور الدين دمشق عام (549 هـ – 1154 م) بمعونة الاخوين نجم الدين واسد الدين، حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعا، وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما : الناصر صلاح الدين وتورانشاه كاميرين متقدمين في الدولة كما سنرى.. وابو شامة يشير بالحرف الواحد إلى انه " كان لاسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نور الدين امرها ورد اليه جميع احوالها "[140]. وزاد على ذلك فاقطعه الرحبة[141]... ويواصل ابو شامة حديثه فيقول : " وتوسط اسد الدين في امر اخيه نجم الدين مع نور الدين (والوساطة هنا – كما يبدو – لا تأتي بمعنى المصالحة وانما بمعنى التعريف والتقديم) فاقطعه اقطاعاً وسيّره إلى دمشق فاقام فيها ورد نظر دمشق اليه، وولى ولده تورنشاه شحنكية دمشق فساسها احسن سياسة ولم يزل بها إلى ان استبدل باخيه صلاح الدين " [142].

وكان صلاح الدين قد فارق اباه نجم الدين منذ عام (546 هـ – 1151 م) وانتقل الى خدمة عمه اسد الدين في حلب، فقدمه بين يدي نور الدين فقبله واقطعه اقطاعا حسنا[143]..

وابن ابي طي هو نفسه الذي يحدثنا كيف ان نور الدين " استخلص صلاح الدين والحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر "[144]... ويذكر ابن الاثير كيف ان كلا من نجم الدين واسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق في اعلى المنازل " لاسيما نجم الدين فان سائر الامراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا ان يامرهم او احدهم بذلك، الا نجم الدين فانه كان اذا دخل عليه قعد من غير ان يؤمر بذلك "[145]. كما يحدثنا كيف ان اسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ ايام والده زنكي.. وبعد ان تولى امارة حلب راح يقربه ويقدمه " ورای منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره[146].

والى جانب بني الداية وبني أيوب تبرز أسماء لامعة اخرى في ميدان الادارة يقف العماد الأصفهاني الكاتب في قمتها ولا ريب...

غادر العماد بغداد ميمما شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة (562هـ – 1166م) وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين بني أيوب : نجم الدين، أسد الدين وصلاح الدين.. ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّه بشأنه. فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً في مطلع عام (563هـ – 1167م) وصار رئيس ديوان الانشاء وكاتب السر ومدبج الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين. وكان يتلقى من بني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها. وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب – كما يذكر هو نفسه – بعد استعفاء أبي اليسر شاكر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الانشاء واعتكافه في بيته. وهو يذكر أيضاً أنه وجد من

نور الدين منذ ذلك الوقت " الاعزاز والتمكين على الأيام ". وقد اعتمده نور الدين، فضلاً عن ذلك، في عدد من السفارات : إلى شاه أرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة (564هـ – 1168م) والى الخليفة العباسي في أوائل سنة (566هـ – 1170م) كما فوضه الاشراف على المدرسة النورية في دمشق، والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية، نسبة اليه، في رجب سنة (567هـ – 1171م). وفي العام التالي أصبح العماد مشرفا على دواوين المملكة كلها اضافة إلى مهمته في ديوان الانشاء. والاشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين فكأن المشرف هو المفتش العام للحكومة[147] " فجمعت، يقول العماد، بين المنصبين وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير وتارة للاثبات في الدساتير[148]. ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي "[149].

وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته، إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك المسؤول الأول عن الكتابة والاشراف الاداري والمالي[150].

ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الاداري فيقول : ".. وقد مال الي نور الدين وعول في مناصبه عليّ وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي. فما أتحف بتحفة، ولا أخص من احد بعطية إلاّ أطالعه به وأطلعه على سببه. فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول : تصرف فيه تصرفك في مالك "[151] ويمضي العماد إلى القول : " ثم اعتمد علي اعتمادا كليا وجعلني له نجيا، واذا أراد ان يكتب إلى احد في مهم يقول : اكتب اليه من عندك. ومن جملة ذلك أن سعد الدين كمشتكين – نائبه في الموصل – أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها، فجاء – الرجل – وتظلم، فأمرني نور الدين بان اكتب اليه بردها عليه. فقال كمشتكين : ما ينفعني إلا كتابه وتوقيعه، فأنهيت ذلك اليه فقال : ما معناه ؟ أما يعلم كمشتكين أنك كاتبي وأميني وصاحبي ولا تكتب الا بأمري ؟ فان خالف كتابك اليه قلعت عينيه !! فمضى اليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته "[152].

ومما لاشك فيه ان العماد الأصفهاني قد حقق نجاحا كبيرا في مهماته الادارية الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعا في مدى لايتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها : الكتابة والاشراف (الاداري) والاستيفاء (المالي). واذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه – وهو الأرجح، لما سبق وان ذكرناه – فان نور الدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الأمر كاملا في مناصبه تلك، ورغم ذلك فان العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد ان يطلع سيده عليها... وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين.

تلي هذه الأسماء في ميدان الادارة (أي بنو الداية وبنو أيوب والعماد الأصفهاني) أسماء أخرى أقل منها أهمية، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم ان المصادر لم تشر اليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا عنها الشيء الكثير.

هناك الموفق خالد بن محمد القيسراني مستوفي المملكة حتى عام (568هـ – 1172م) والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين " في مقام الوزير، وله انبساط زائد "[153]. ويذكر في (الخريدة) أنه لما وصل الشام وجد القيسراني " في صدر مناصبها وبدر مراتبها... وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه في الملك معه. ولقد كان حقيقا بذلك "[154] ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول : " كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، واليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الانشاء وإمرة مجلسه، وهو المشير والوزير، والأمور كلها عائدة اليه "[155] وواضح أن عمله في كتابة الانشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني.

وهناك محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر[156]. كان كما يصفه سبط ابن الجوزي : " عزيزا عند نور الدين ومن اعظم أمرائه "، ولدى سماع الأخير نبأ وفاته عام (565هـ – 1169م) ووفاة مجد الدين بن الداية في العام نفسه، بكى وقال : قص جناحاي وكافأ أولاد العمادي بمدينة بعلبك[157].

والشيخ الأمير مخلص الدين ابو البركات عبد القاهر بن علي بن ابي جرادة الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين. توفي عام (552هـ – 1157م) ويصفه ابن القلانسي بأنه كان خيِّراً كاتباً بليغاً مستحسن الفنون، حسن الخطّ مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء. وكان على علاقة وثيقة بابن القلانسي نفسه بحكم تردده بين حلب ودمشق، وقد ريع الرجل لدى سماعه نبأ وفاة صديقه[158].

وأبو سالم بن همام الحلبي الذي ولي الاشراف على الديوان بدمشق حتى عام (551هـ –1156م) حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقابا قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح : " هذا جزاء كل خائن ". وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياما أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق " على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه.. "[159].

يلي هؤلاء موظفون آخرون لا نجد عنهم سوى إشارات مقتضبة إلى أسماء الوظائف التي عهدت اليهم[160]. وثمة حشد من الأمراء الذين وردت أسماؤهم بين الحين والآخر، دون ان يشار إلى الوظائف التي تسلموها ولعل أغلبهم كانوا قادة عسكريين أو أمراء مرافقين لنور الدين في

مهماته المدنية والحربية على السواء، وبعضهم اشترك في حملات أسد الدين شيركوه على مصر واستقر به المقام هناك، وتولى فيما بعد في عصر الأيوبيين أرفع المناصب[161].

أما الولاة والمقطعون ففيما يلي قائمة بأهم الأسماء التي يستطيع الباحث ان يضع يده عليها :

مجد الدين بن الداية : قلعة جعبر، عين تاب، عزاز، شيزر[162].

بدر الدين بن الداية : حارم[163].

سابق الدين بن الداية : تل باشر. وعموما فقد كانت لبني الداية جميع المعاقل المحيطة بحلب[164].

أسد الدين شيركوه : حمص وأعمالها عام (563هـ - 1167م) ، الرحبة. ولما استقر بنو أيوب في مصر استرد نور الدين هذين الموقعين وعين عليهما عمالا آخرين[165].

الناصر صلاح الدين : مدكين (من ضياع كفر طاب) وزردنا من ضياع حلب (عام 563هـ - 1167م) [166].

مجاهد الدين بزان بن مامين : صرخد (عام 542هـ - 1147م) [167].

محمد العمادي : بعلبك، تدمر وبعد وفاته عام (565هـ - 1169م) أعطيت بعلبك لأولاده[168].

زين الدين عمر بن لاجين : حصن بعرين، وعندما اتجه إلى مصر رتب نور الدين بدلا منه الأمير عين الدولة الياروقي[169].

حسان المنبجي : سلم مدينة تل باشر سنة (549هـ - 1154م) قبل ان يتولاها سابق الدين بن الداية[170].

قطب الدين ينال بن حسان : منبج (عام 562هـ - 1166م) [171].

علم الدين علي كرد : حماة[172].

حسام الدين طومان بن ملاعب : الرقة[173].

شهاب الدين مالك العقيلي : أخرج من قلعة جعبر (عام 564هـ - 1168م) وعوض بمدينة سروج وأعمالها[174].

قايماز الحراني (مملوك نور الدين) : حران[175].

خادم أسود لنور الدين (؟) : الرها[176].

سعد الدين كمشتكين (خادم كذلك) : قلعة الموصل (566هـ - 1170م) [177].

- 2 -

ومن خلال الروايات الشحيحة عن الجانب الاداري والتي عرضنا لها في الصفحات السابقة نستطيع ان نتبين قائمة بأهم الادارات والوظائف في دولة نور الدين : النائب، الوزير، ناظر الديوان، المستوفي، المشرف، أمير، حاجب، والي الأقليم، والي البلد، والي القلعة، الشحنة، رئيس البلد، الأتابك، الخادم.

وكما سبق ان ذكرنا فان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة، وكان أبوه زنكي قد اعتمدها وأفاد منها إلى حد كبير طيلة عشرين عاما (521 – 541 هـ، 1127 – 1146م) وجاء الأيوبيين فيما بعد، والمماليك في أعقابهم، لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول. وثمة إشارة للمؤرخ الفرنسي (فيت) تتضمن تأكيدا لهذه الحقيقة فهو يقول بان المنطقة كانت قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية إلى حد كبير أو صغير، بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما لجأوا اليه من انشاء المدارس[178]. وقد أشار القلقشندي إلى هذه المؤثرات الحضارية للسلاجقة، والأتابكيات التي تفرعت عنها في مختلف أنحاء المنطقة، بحيث أن أهم الدول والإمارات التي قامت فيها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الأحيان[179].

وثمة نتيجة تتمخّض عن هذه الاعتبارات وهي ان كل دراسة للنظم التي التزمتها الدولة السلجوقية، أو الدول أو الإمارات التي أخذت عنها كأتابكية الموصل والدولة الأيوبية وغيرهما[180] تلقي ضوءا في الوقت ذاته على المعالم الأساسية للإدارة في عصر نور الدين خاصة وان دولته شملت مدنا ومواقع كان أبوه زنكي، والسلاجقة من قبله قد نسقوا شؤونها الادارية ووضعوا بصماتهم عليها. ولنا هنا أن نمر على هذه الوظائف بإيجاز ووفق تسلسلها في الأهمية ؛ لكي نعرِّف بها تعريفا سريعا قدر ما يسمح به المجال[181].

فالنائب – كما يعرفه القلقشندي – هو" القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها "[182] وقد كان النائب في العصرين الأيوبي . والمملوكي يشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة، وتوزيع الاقطاعات، وتعيين الموظفين، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة فيقرها السلطان دون ان يرفض تعيين أحد المرشحين إلا نادرا "[183]. وكان من اعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية[184]. وترؤس اجتماعات ديوان الجيش[185] وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الأمور المتعلقة بنياباتهم[186]. وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في شتى المجالات العسكرية والمالية والادارية[187] وقد أكد (فان برشم) على ان نائب السلطنة كان على رأس الموظفين[188]. وكان النائب في عهد زنكي والد نور الدين، يمارس – هو الاخر – سلطات واسعة في شتى المجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية، ذلك أنه كان معتمده الأول في إمارته [189]. وفي عهد نور الدين شهدت المدن الكبرى لدولته

– حلب، دمشق – نوابا كان يستخلصهم من بين أكثر رجالاته كفاءة واخلاصا، وكانوا يمارسون صلاحيات واسعة في المجالات العسكرية والمالية والادارية، وكانت تقام لدى تعيين أحدهم حفلة رسمية يمنح فيها خلعة شرفية وتقليدا رمزيا وكتابا رسميا يسمى التشريف[190]. ولكن يجب ان لا يغيب عن بالنا هنا أن مهمات نائب السلطنة في العصر المملوكي، كما يبينها القلقشندي وغيره، لا تتطابق بالكلية مع مهماته في عهد نور الدين وأبيه زنكي من قبل، وان مصطلح (نائب السلطنة) لم يرد بصيغته هذه الا في عصور تالية، لاسيما وان أياً من الرجلين لم يتخذ لقب (السلطان).

وتثير مشكلة (الوزارة) في عهد نور الدين نفس التعقيدات التي أثارتها بالنسبة لأبيه زنكي (521 – 541هـ) بسبب غموض النصوص، وندرتها واعتمادها طريقة التعميم الذي لا تتضح معه طبيعة الصلاحيات التي أنيطت بالوزير. وأغلب الظن ان ادخال وظيفة (النائب) إلى الجهاز الاداري منذ العصر السلجوقي جعل معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية تتحول إلى هذا الموظف الرئيسي، ومن ثم غدا منصبه أقل أهمية من ذي قبل. ويشير إليسيف إلى ان الوزير – عموما – هو رئيس الادارة والمسؤول عن الدوائر الكبرى : الخزينة، الدواوين... الخ لكنه غدا في حكم نور الدين في الدرجة الثانية وأصبح أشبه بمستشار سياسي للدولة[191].

ومع ذلك فان الوزارة في هذا العهد والعهدين الأيوبي والمملوكي اللذين أعقباه لم تفقد مكانتها نهائيا بدليل ما أورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب فالظاهري يقول : " ومن انتصب لهذه الوظيفة – أي الوزارة – لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة، بأن يحمل أثقالها ويزيح اختلالها ويصلح أحوالها ويحفظ رجالها وينمي أموالها، ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالها... فمن أخلص رفعه ومن غدر عزله. ويعتني بجهات الأموال وحراسة أسبابها وضبط حسابها والعدل في جبايتها.. ويقوم بتوزيع القطائع "[192]. كما يذكر القلقشندي ان الوزارة " من أجلّ الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة "[193].

الا ان الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد ليس فقط النائب وانما ايجاد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر، كناظر الجيش وناظر الدولة (أي الذي يشارك الوزير في الامور العامة والقضايا المالية) فضلاً عن الوظائف الأخرى آنفة الذكر[194]. ويجب ان نلاحظ – كذلك – أن المصادر لم تشر بوضوح تام إلى منصب الوزير في عهد نور الدين، فهي إذ تتحدث عن احدهم تصفه حينا بأنه كان (في مقام الوزير) وحينا آخر بأنه (المشير والوزير) أو (متولي الوزارة)، وهذا مما يزيد المشكلة تعقيدا لاسيما إذا تذكرنا ان بعض الحكام لم يشاؤوا اتخاذ الوزراء احتراما للخليفة العباسي.

أما ناظر الديوان فكان يطلق – لدى المماليك – بصورة عامة على المسؤول الأعلى للديوان سواء كان ديوان انشاء أو بريد أو نظر (أي مالية)... وكان يساعده في تسيير شؤون

ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة، وعدد من صغار المستوفين، كما كان يطلق بشكل خاص على المسؤول عن القضايا المالية " وهو مخاطب عن كل ما يتم في معاملته من خلل "[195].

وتعد وظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية، وكان المستوفي يلي الوزير في الأهمية، وكان من واجبه الاشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الأموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء[196].

أما الاشراف على الديوان فكان يعد من الوظائف المهمة لدى السلاجقة ولها ديوان خاص يقوم المشرف بادارته، وهو يعني بالاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما، وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء، ومثل المشرف كمثل المستوفي يستطيع ان ينيب عنه في كل ولاية نائبا. ونظرا لما بين المستوفي والمشرف من علاقة، يكون المستوفي مراقبا لديوان الاشراف[197].

والأمير الحاجب يشرف على ديوان الجيش، وتختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء إذ ان عمله هو ان " ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب، واليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك "[198]. أما الحاجب نفسه فقد اختلفت صلاحياته حسب الأزمنة اختلافا كبيرا , وفي العصر الذي نتحدث عنه اصبحت مهمته إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم أمامه واطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى، فالحاجب – إذن – يشبه وزير الداخلية حاليا[199].

فاذا ما جئنا إلى ولاة الأقاليم والمقطعين فاننا لانجد المصادر تمنحنا قدرا كافيا من الروايات عن طبيعة المسؤولية التي كلف الولاة بها، والجهاز الأقليمي الذي يعاونهم في شؤون الادارة، وصلاحية تعيين أعضائه. ولما كانت معظم المواقع (الولايات) يوم ذاك ذات قلاع وحصون فالمرجح أن أهم أعمال أولئك الولاة كانت، حسبما ذكره القلقشندي " حفظ تلك القلاع وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها، وأخذه بقلوب من فيها، وجمعهم على الطاعة بالإحسان اليهم، وتحصينها بآلات الحصار، وادخار آلات الحرب ومهماتها، والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها وتفقد احوالها في كل صباح ومساء، وإقامة الحرس وإدامة العسس، وتعرف أحوال المجاورين لها من الأعداء، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الأخبار "[200]. هذا بالاضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الأخرى كمساعدة السلطان في عملياته الحربية بشكل مباشر، أي بإمداده بالجند والميرة، أو غير مباشر، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته والدفاع عنها ضد هجمات الأعداء[201].

ونلاحظ ان المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن مثل (تولي) و (سلم) و (اقطع) و(اعطي) و (رتب) و (عين) كما أنها سمت بعضهم بـ (صاحب كذا...) بدلاً من وال ؛ وهذا يشير – بطبيعة الحال – إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها، حيث نجد أن المقطع يتمتع بصلاحيات أوسع في مجال إقطاعه، من الوالي الذي يمارس عملاً إداريا فحسب[202].

ويجب ان نلاحظ ان اقطاع أمير ما مدينة من المدن ليس معناه – بالضرورة – ان نور الدين جعله صاحبها، بل المراد أنه خوله الحق في أن يأخذ لنفسه صافي إيرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين عسكريين ومدنيين. وقد يقيم المقطع في اقطاعه أو لا يقيم، لأن إدارته كانت بيد رجال السلطان. أي ان الاقطاع – على هذا – كان نوعا من المكافأة المالية إلى جانب الراتب[203].

وعلى العموم فقد قسمت دولة نور الدين – إداريا – إلى عدة أقاليم شهد كل منها عددا من الولاة أو المقطعين : القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب، والقسم الأوسط وقاعدته دمشق، ومقاطعة حمص، وأقليم الجزيرة الذي ضم ثلاث مقاطعات : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل، وديار مضر وقاعدتها الرقة، وديار بكر وقاعدتها آمد. هذا فضلاً عن الأقاليم التي فتحت فيما بعد كمصر واليمن... ولم يغفل نور الدين عن ضرورة ربط هذه الأقاليم الادارية جميعا بسياسة مركزية موحدة لمجابهة تحديات الصليبيين من جهة، ومحو آثار التمزق الذي عانته المنطقة طيلة العقود السابقة من جهة أخرى[204]. فهي – إذن – ليست محاولة لتنمية (الروح السورية) كما استنتج إليسيف[205]!!

أما والي البلد فيرجح أنه كان يقوم بنفس مهام الوالي المركزي لدى الأيوبيين والمماليك – فيما بعد – حيث كانت مهمته " الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك "[206]. وهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر ومن اختصاصه أيضاً مراقبة ابواب المدينة والطواف بأحياء التجارة والمال [207] أي ان مهمته أشبه بمهمة كل من البلدية والشرطة في الوقت الحاضر[208].

وكانت اختصاصات والي القلعة . فيما يبدو . مشابهة إلى حد كبير لاختصاصات نائب القلعة لدى المماليك – فيما بعد – حيث كان هذا يقوم بالاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم ويتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها. ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات، وهي أشبه بوظيفة الشرطة أو الانضباط العسكري في الوقت الحاضر، وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب[209].

والشحنة وظيفة استحدثها السلاجقة ويعين صاحبها من قبل السلطان وهي أشبه ما تكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا الحاضر، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وإدارية، وهو المسؤول عن ادارة المدينة وملاحظة الخارجين على النظام[210].

اما رئيس البلد، أو رئيس الأحداث، فيتولى رئاسة جماعات مسلحة من سكان المدينة أشبه بالقوات الشعبية، وكانت هذه الجماعات قد ازداد شأنها في بلاد الشام في مستهل القرن السادس الهجري وأصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد، ويقر والي المدينة اختياره، وقد قلدت حلب أختها دمشق في ذلك[211].

أما (الأتابك) فهي كلمة تتألف من لفظين تركيين هما (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير، أي الأمير الوالد[212] " وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام " وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر من ابنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد[213].

وكان الخدم، أو الخدام، يعملون سوية مع الحجاب في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم أمور القصر وتلقي المكاتبات أحيانا[214].

– 3 –

وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماما كبيرا وجعلها – بما أنها الاداة التنفيذية لاقرار مبادئ الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم – في قمة اجهزته الادارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، ان لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالا تاما[215]، في دراسة القضايا المعروضة عليهم وإصدار أحكامهم بصددها. وتوج ذلك كله بانشاء (دار العدل) التي كانت بمثابة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين وارغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم ان اقتضى الأمر.

وكان شعاره ما أكده أصحابه مرارا " حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي "[216]. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي – الذي كان أحد نوابه في حلب – هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوما أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما وجعل ينكش باصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ؟ في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من اصحابي أو أعواني، وأخاف

المطالبة بذلك (أمام الله) !! فبالله عليكم – وإلا فخبزي عليكم حرام – لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[217].

يصفه ابن الأثير بأنه " كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان. القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم ان سار ذكره في شرق الأرض وغربها "[218].

وكانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه دارا في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت – كما ذكرنا – أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة. وقد جاء انشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر. فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهروزي فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل. يقول ابن الأثير : " فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا ان نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع عن كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي. فقالوا له : ان الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من ان يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء) ؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده احد يشكو من اسد الدين، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذا أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا "[219].

وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الاسبوع، وقيل اربع مرات أو خمس[220] للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم " لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله "[221]. وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهروزي وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية " ويأمر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من

عدله. فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة "[222].

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير : " ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده أو أكبر أمير عنده "[223] وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق " ليصل اليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم "[224]. الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى حوالي ثلاثة آلاف[225] وفي الثانية ألفا وخمسمائة، كما يفسر لنا اتخاذ دمشق مقرا لرأس المثيبة[226] لعلماء فلسطين[227] وتواجد العدد الجم من هؤلاء فيها[228].

أما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فانهم لم يمسوا بأذى – رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي – وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه " أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً. وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلدا قتلوا جلّ أهله المسلمين. ولو انه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان انسانا عظيما لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها.. بل ان الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وآمنوا إلى عدله وإنصافه "[229].

وما كان نور الدين، هذا الحاكم العادل، ليضع بينه وبين الرعية حداً أو جداراً، فيستثني نفسه من حضور مجلس القضاء والإذعان لحكمه إذا ما أدين بتهمة أو ثبتت عليه.. وما أكثر ما يحكيه المؤرخون ويتناقلونه من روايات تبين لنا كيف كان الرجل يذعن للطلب ويذهب لحضور ساحة القضاء وتلقي كلمته كما يذهب أي مواطن عادي.

طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا ان دخل عليه ضاحكا وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف : يُحضر فرسي حتى نركب اليه، السمع والطاعة ؛ قال الله تعالى : **{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا }**[230] ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى احد اصحابه وقال له : امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له : أني جئت ها هنا امتثالا لأمر الشرع[231].

ويوما كان يلعب الكرة – هوايته المفضلة – في دمشق فرأى رجلا من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده اليه، فأرسل اليه يسأله عن حاله، فأعلمه ان له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة. فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من

الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له : انني قد جئت محاكما فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه. واذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا، فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه. وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر ان الحق لي وهبته إياه[232] " تلك هي غاية العدل والانصاف بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل " كما يعلق ابن الأثير[233].

في عام (558هـ – 1162م) ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين : أنا لا أعلم شيئا عن ذلك فان كان لك بيّنه تشهد بذلك فهاتها وأنا أردّ إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري.. فمضى الرجل ليحضر البيّنة[234].

وفي حادثة أخرى نلتقي بنور الدين وقد استدعي إلى مجلس الحكم فمضى مسرعا إلا أنه وجد أثناء طريقه ما منعه من العبور، فوكل وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل وقفل راجعا[235].

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فإن قامت عليه البيّنة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعدٍ " فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة. وأمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر "[236]. ويحدثنا ابن الأثير : كيف ان أحد أسباب إقالة عبد المسيح، أحد كبار مسؤولي الموصل من وظيفته عام (566هـ – 1170م) كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة[237].

هذا على مستوى القضايا الخاصة، وأما القضايا العامة التي تكون (الحكومة) فيها طرفا في الموضوع أو تتخذ إجراءاً بأسم الصالح العام قد يمس بحقوق الموطنين فان نور الدين لم يكن أقل تحريا للحق والتزاما بالعدل. وثمة وثيقة قيمة يثبتها لنا ابو شامة بنصها عن احد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين في التزام الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق. وفيما يلي بعض مقاطع هذا المحضر ونماذج من المناقشات التي دارت فيه والآراء التي طرحت خلاله :

" حضر عند نور الدين بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة (554هـ – 1159م) القاضي زكي الدين ابو الحسن علي بن يحيى القرشي، والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون والخطيب عز الدين ابو البركات والإمام عز الدين أبو القاسم بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب المالكي، وشرف الإسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي ورضي الدين ابو غالب بن محمد بن اسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين بن ابي

المضاء متولي الوزارة بدمشق، وعدد من الأعيان من شهود العدالة. فسألهم (نور الدين) عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه، وأن يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم : ليس يجوز لأحد منكم يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره ولاينكر شيئا مما يقوله غيره إلا وينكره والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب لقوله، وليس العمل الا على ما تتفقون عليه وتشهدون به. وعلى هذا كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين.. ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل – وما يجري مع ذلك – ان يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعا ليفرد مايعلمون أنه للمصالح (العامة) دون الوقف. فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان، فقال بعضهم : هذا السوق بكماله لصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين وقد صرف في الجامع من اجوره أوفى مما عزم على عمارته من وقفه. فصدقهم الحاضرون على ما شهدوا به. ثم عين للمصالح أيضاً (بعدد الأماكن واحدا واحدا).. فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر وان منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين : ان أهم المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق، لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم فصوبوا ما أشار اليه وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين ؟ فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن ابي عصرون الشافعي : لا يجوز ان يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، واذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه الا ان يقترضه من اليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن ابي عصرون نور الدين : هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ؟ وهل كان إلا مبلغا للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين : لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بأذني وأنا أمرت به... "[238].

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالا ثقاة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده – كما رأينا – قمة مؤسسات الدولة، وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه.

ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين ابو الفضل محمد بن الشهرزوري، اولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي وما قبله ، في المهام القضائية وبرعوا فيها. كما يبرز اسم شرف الدين بن ابي عصرون.

وحدث في مطلع عام (555هـ – 1160م) أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين ابو الحسن علي القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها اعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه، وولى قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له : " المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم، والحكم بين الرعايا بأحسن أفعال الحكم ".. وكتب له نور الدين منشورا بذلك بين فيه أنه في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فان ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه[239].

كان كمال الدين قد ولد عام (491هـ – 1097م) وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وولي قضاء بلدة الموصل، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولا من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين[240]. ويبدو من رواية لابن العديم[241] أن كمال الدين أصبح بعد أقل من عامين (557هـ – 1161م) قاضيا لقضاة الدولة كلها " وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه "، وأن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام (555هـ – 1160م) وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن ان يكون أحد نواب كمال الدين. ومهما يكن من أمر فان كمال الدين قد تمكن من منصبه وأصبح في دمشق، كما يقول العماد " الحاكم المطلق "[242] وأصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور[243]. وورد عنه كذلك أنه " ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام "[244]. وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر بالأبرار وحفظ الاصدقاء[245]، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية. ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار، فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها[246]، وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه[247]، كما أولى عناية خاصة باعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء [248]. وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثا إلى الخليفة العباسي في بغداد[249]. كما اعتمد ابنه محيي الدين نائبا عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها. وكان محيي الدين هذا، كما يصفه العماد " من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته (بالفقه) في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة (535هـ – 1140م) "[250]، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم[251]. وعندما دخل الموصل عام (566هـ – 1170م) أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[252].

أما الشيخ شرف الدين ابو سعد بن ابي عصرون الذي تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة، ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه [253]، فقد ولد بالموصل سنة 492هـ (أو 493هـ) – 1099م) وتفقه على جماعة من العلماء، وانتقل إلى حلب سنة (545هـ – 1150م) ، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين اليها عام (549هـ – 1154م) ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتبا كثيرة في الفقه والمذاهب، ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به، وكان فقيها من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك، وكان متوحدا في العلم والعمل. وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالاشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وحماة وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه – كما سبق وان ذكرنا – صلاحيات واسعة[254]. كما اعتمده عام (566هـ – 1170م) رسولا إلى الخليفة المستضيء في بغداد [255]. وقد توفي عام (585هـ – 1189م)[256].

– 4 –

لم تكن الادارة في دولة نور الدين محمود أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من (البيروقراطيين) كما انها لم تكن مجرد ذريعة عملية (براغماتية) لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب.. إن هنالك أهدافا أكبر بكثير، وقيما ومبادئ أبعد مدى، كان على الأجهزة الإدارية ان تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدما صوب آفاقها الرحيبة الشاملة..

إن تنفيذ شريعة الاسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث (المجتمع الاسلامي) كان هو الهدف المركزي لإدارة نور الدين محمود. فهي إذن إدارة ملتزمة وليست جهاز منفعة وكسب واحتراف..

وفي أكثر من مناسبة وعبر حشد من الأقوال والتأكيدات والتصريحات والمواقف أشار نور الدين إلى هذه الحقيقة.. ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها وسعى – فعلا – إلى ان تنتقل هذه الدعوة – رغم المصاعب والعقبات – من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق.

قال : " نحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل ؟![257]، وقال " نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها "[258] ، وقال مخاطبا أحد الحكام " انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوى، وميز

بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة "[259]. وقال متحدثا إلى اثنين من كبار موظفيه : " والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم. أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فبالله عليكم وإلا فخبزي عليكم حرام، لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي "[260]. وقال فيما يلخص موقفه (الملتزم) بعبارة تثير الإعجاب " إني جئت ها هنا امتثالا لأمر الشرع "[261]!!

وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعا هذا الحرص على الالتزام، وعلى جعل الادارة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض.. يقول ابن الأثير : " كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها "[262] ويقول في مكان آخر : " وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فانهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، حتى جاء الله بدولته فوقف مع اوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا ان يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه "[263]. ويقول ابو شامة : " سمعت أبا شداد يقول : أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين "[264]. ويقول في مكان آخر : " كان أشهى ما اليه كلمة حق يسمعها، أو ارشاد إلى سنة يتبعها "[265].

ويقول ابن كثير : " كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة "[266]. ويقول ابن قاضي شهبة : " كان نور الدين – لما صارت له الموصل – قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئا إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئا الا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء – أحد شيوخ الموصل الصالحين – وكان معتنيا بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحدا من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته "[267].

وكان لا يقدم على إجراء ما، عام أو شخصي، إلا بعد ان يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجما مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[268]. وقد سبق وأن مرّ بنا ذلك المجلس القضائي الذي عقده نور الدين للفصل في مصالح الأوقاف العامة وما دار فيه من حوار مفتوح كان يستلهم روح الشريعة ويتحرك في أُطرها ودوائرها.

ولم يدع نور الدين منكرا يسود جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن، فيدمر الانسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية،

ويستنزف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائما إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة.. لقد قالها يوما أحد كبار الشيوخ – برهان الدين البلخي – وجها لوجه أمام نور الدين : " أتريدون ان تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله "[269].

وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا، ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الانجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة، القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين.. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو ادخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما يندّ عن محجة الشريعة البيضاء، وينحرف إلى جحور الخطايا وبؤر الظلام. وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره " وكل الناس عنده فيه سواء "[270].

لقد بلغ التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً عجيبا.. والرواية التي يقدمها لنا ابن قاضي شهبة تعطينا دليلا من عشرات الأدلة بل مئاتها، على هذا الالتزام العقيدي الذي بلغ – على يدي نور الدين – درجة العشق الذي يذكرنا بسلفه العظيم عمر بن عبد العزيز : " حكى الشيخ ابو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ ابي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرّ أثناء الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلدا سيفا، فاستفاد نور الدين أمرا لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف !! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه باوساطهم، فلما كان الغد مرّ، وانا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر اليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك "[271].

ويعلق ابن قاضي شهبة على هذه الحادثة فيقول : " رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الحالة. بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن ؟! "[272].

بلى.. إذا كان هذا الالتزام قد تحقق في مجال الاجراءات الشكلية.. فما الظن في مساحات (المضمون) الأكثر ثقلا في حركة التغيير الشاملة التي سعى الرجل لتحقيقها ؟!.

الفصل الثالث

في ميدان المال والمجتمع

-1-

أولى نور الدين محمود المسألة الاجتماعية اهتماماً بالغاً وأدرك ان أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الاحسن والامثل لن يستكمل أبعاده الا من خلال إعادة تشكيل الارضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لايبقى هنالك ظالم أو مظلوم.. فمن خلال هذه الثغرة الخطيرة، من خلال هذا التقابل المدمر في الحياة الاجتماعية تضيع طاقات وقدرات كان يمكن ان تتفتح وتعطي لولا حصار الجوع والمسغبة، بينما في الجهة الاخرى يتمركز – بسبب تكدّس غير طبيعي في الثروة – العفن والتفكك والترف والفساد.

كان نور الدين محمود يشكل موقفه الفعال في المسألة الاجتماعية من خلال الرؤية الاسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنه رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الاسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ.. ولقد تحدثت عن الخطوط العريضة لهذه الرؤية في بحث (مقال في العدل الاجتماعي)[273] ، كما حللت أحد نماذج التطبيق العملي في بحث (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) [274] بشكل موسّع ؛ فليس ثمة داع لأن نعيد هنا ما قلناه هناك.

ولنا – من ثم – ان تتبع بتركيز صيغ السياسات الاجتماعية التي اعتمدها نور الدين في ميادين المال والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، فأغنى الرصيد الواقعي للتجربة الاسلامية، وقدم (نموذجاً) قيادياً آخر في ميدان التطبيق العملي.

يبدو واضحاً من خلال تتبع النصوص التي يستطيع الباحث جمعها عن هذه المسألة، كيف أن نور الدين كان يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم.. وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الاخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الاسلامي وغير الاسلامي.. وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات.

ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرّك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الادنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته.. وكان يحوط هذا التحرك – الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن – برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء.. كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الامة، من أجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية.. يستند في ذلك كله على قدر من (الموارد) كان – ولا ريب – قديراً على تغطية متطلبات (العطاء) الواسعة التي نفذها نورالدين.

– 2 –

وقضية (الضرائب)، ككثير من المواقف في الحياة والمجتمع، تحمل – وفقاً للظروف التاريخية – جانبي السلب والايجاب، فالسياسة الضرائبية ليست مطلقة فيها .. وانما هي نسبية بالاحالة إلى مجموع الظروف الذاتية والموضوعية التي تتحدد فيها.. فتارة يكون التوسع فيها عدلاً وحيناً يكون ظلماً وبالعكس..

عندما يفرض في العصر الحاضر – على سبيل المثال – المزيد من الضرائب والضرائب التصاعدية، على ذوي الدخول الكبيرة من أجل إحداث حالة التوازن لايمكن الا ان يعد ذلك اجراءً عادلاً، لأن الاجهزة الحكومية أصبحت – في عدد من الدول على الاقل – أدوات كفوءة ومتخصصة وموضوعية – إلى حدّ ما – في مهمة تحويل هذه الضرائب إلى جهاتها الحقيقية.. ورغم ذلك فإننا نجد في عصرنا هذا الكثير من الاستغلال والابتزاز والتوجيه اللاموضوعي لحصيلة الضرائب..

اما في عصر آخر كعصر نور الدين، كان الحاكم الاعلى فيه، خليفة أم سلطاناً أم ملكاً أم اميراً، هو الرجل الاول في الدولة، وكان بمقدوره ان يتصرّف في اموال الدولة كيفما يشاء.. في عصر (المصادرات) التي كانت تستهدف الاثراء الشخصي فحسب. في عصر الضرائب المتزايدة التي لم تكن تفرض الا لحلّ ازمة عابرة تتعلق بفرد أو هيئة فحسب.. في العصر الذي أخذت الضرائب تتزايد فيه مع الزمن " حتى ان الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكساً يصل إلى خمسة واربعين في المائة على قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء، ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس اموالهم، وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الارض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس.. "[275] .. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب يعد – ولا شك – خطوة ايجابية في طريق العدل الاجتماعي.

أخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منذ فترة مبكرة، وكان – حيناً بعد حين – يصدر الاوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللاشرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والامراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان ولا يزال العديد من الحكام والامراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيتّه تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها.. وهذا يؤكد ما سبق وان قلناه قبل قليل من ان إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من اجل تحقيق العدل الاجتماعي..

وكان ينتهز الفرص المناسبة : فتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادث من الاحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء..

عندما دخل دمشق عام (549 هـ) أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والاسواق : دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الانهار[276]، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها. وقرئ المنشور على المنبر " فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس من التنّاء والفلاحين والحرم والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه "[277].

وفي عام 552 هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين الف دينار.. وقد جاء فيه ".. هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا – رعاهم الله – لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفّار – أبادهم الله تعالى – عند أستيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد.. وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من املاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح.. بعدما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين.. فطمس عنهم – بذلك – معالم الجور.. ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره، وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفره بالفئة الباغية.. منح لكافة المسافرين (أي التجار) وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرمها على كلّ متطاول إليها ومتهافت عليها تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها. فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الامر فيه اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في كلّ سنة من العين[278] مائة الف وستة وخمسون الف دينار "[279].

ثم يعرض المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الالغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها وهي : " حلب : خمسون الف دينار، عزاز : عن مكس جددته الفرنج على المسافرين، عشرة الاف دينار، تل باشر : واحد وعشرون الف دينار، المعرة : ثلاثة آلاف دينار، دمشق : عشرون الف دينار[280]، حمص : ستة وعشرون الف دينار، حران : خمسة آلاف دينار، سنجار : الف دينار، الرحبة : عشرة آلاف دينار، عداد العرب[281] : عشرة آلاف دينار "[282].

وبعد عام واحد اصدر نور الدين منشوراً آخر في دمشق قرئ على الناس كافة بإسقاط ضمان بعض المواد الغذائية الاساسية : كالجبن واللبن وغيرهما، من اجل وضع حدّ لشرور الضامنين وتجاوزاتهم الدائمة، فتلقى أهالي دمشق منشوره هذا بالترحاب وواصلوا " الادعية له والثناء عليه ونشر محاسنه "[283].

وشـهد عـام (564 هـ) حملـة اخـرى لإسـقاط حشـد مـن الغرامـات والمكـوس والضرائب التي لم تشملها الاجراءات السابقة، مما كان يطلق عليه بعض المؤرخين اسم (المظالم والمؤن) [284].

وعندما دخل الموصل عام (566 هـ) لم يشأ الا ان يسقط عن اهلها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك ايضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما. واصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الاصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه : " وقد قنعنا من كنز الاموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقدمنا بإسقاط كلّ مكس وضريبة في كلّ ولاية لنا بعيدة أو قريبة وازالة كلّ جهة مشتبهة، ومحو كلّ سنة سيئة شنيعة، وإحياء كلّ سنة حسنة، وانتهاز كلّ فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كلّ ما جرت العادة بأخذه من الاموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً.. وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه... "[285].

ويبدو من عبارات المنشور انه لا يقتصر على الموصل وبعض المواقع الجزرية وإنما ينسحب على كافة أرجاء الدولة لكي يسقط المزيد من الضرائب التي كانت الاجراءات السابقة قد أبقتها مؤقتاً[286]. ويؤكد هذا ما أورده ابو شامة من ان صلاح الدين رفع في مصر، في العام نفسه (566 هـ) " جميع المكوس صادرها وواردها، جليلها وحقيرها "[287]. ويبين ابن الاثير كيف ان المكس في مصر كان يؤخذ من كلّ مائة دينار خمسة واربعون ديناراً " فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره "[288].

ويعود ابو شامة لكي يشير – في أحداث السنة التالية (567 هـ) – إلى ان نسخة سجل قرأت على منبر القاهرة (يوم الجمعة الثالث من صفر) بإسقاط المكوس والمظالم في مصر [289]، وقد تضمن ذلك : ما يستخرج بديوان صناعة مصر (مائة الف دينار)، وما يستخرج بالاعمال القبلية والبحرية (مائة الف دينار) "وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدمة، آخرها سنة (564 هـ) فكان مبلغه ينيف عن الف الف دينار، والفي الف أردب غلّة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين. وأنهي اليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز من المكوس فأنكره وأكبره.. وذلك بإشارة نور الدين وفي أيامه "[290].

ويؤكد ابن العديم ان عام (567 هـ) شهد حملة شاملة اخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس، وان جميع ما اطلق في المرتين الاولى والثانية بلغ خمسمائة وستة وثمانين الفاً واربعمائة وستين ديناراً[291]، وهو رقم يتعارض وما اورده ابو شامة في الرواية السابقة، ولعل ابن العديم لم يدخل في رقمه المبالغ المترتبة عن سنوات سابقة والبالغة مليون

دينار ومليوني اردب والتي أسقطها صلاح الدين من دواوين مصر، وانه اكتفى بجمع الضرائب والمكوس الانية، وتجاوز المبالغ المترتبة عن التأثير الرجعي لبعض الالتزامات الضرائبية السابقة.

ورواية ابن العديم آنفة الذكر تجعلنا نقف بعض الوقت عند النصّ القيّم الذي انفرد به ابن واصل والذي يستعرض فيه مقادير الضرائب والمكوس التي اسقطت في عدد من التواريخ المتقدمة، وفي تاريخ كتابة السجل الذي نقل عنه ابن واصل : رجب عام (567 هـ)

وقد ورد في صيغة ذلك السجل – بعد مقدمة طويلة نسبياً توضّح اسباب ومبررات هذا الاسقاط الشامل – هذه العبارات، قبل البدء بعرض المقادير المالية الملغاة "... وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الاعمال بولايتنا ما امرنا بإزالته الان، واضفنا ذلك إلى ما كنا اسقطناه اولاً.. وسنذكر ما أزلناه من المظالم والمكوس اولاً وآخراً من سائر أعمال ولايتنا في هذا السجل من الديوان ". ثم ترد العبارة التالية : " ذكر ما اطلق من الرسوم والمؤن والمكوس والضرائب في سائر اعمال الولاية المحروسة، شاميها وجزيرتها، في تواريخ متقدمة وفي تاريخ هذا السجل (567)، ورسم إطلاق ذلك كله وتعفيه آثاره ".

ومبلغ ما يحصل من ذلك كلّ سنة : خمسمائة الف وستة وثمانون الفاً واربعمائة وسبعون ديناراً نقداً[292].. فمن ذلك : دمشق : خمسون الفاً وسبعمائة وثلاثون ديناراً. تدمر : خمسمائة دينار. صرخد : سبعمائة وخمسون ديناراً. القريتان والسخة (من اعمال حمص) : خمسمائة دينار، بانياس : الف ومائتا دينار. بعلبك واعمالها : ستة الاف وتسعمائة وعشرون ديناراً. حمص واعمالها : ستة وعشرون الفاً واثنان وتسعون ديناراً. حلب واعمالها : ستة وتسعون الفاً ومائة وستة وثمانون ديناراً. سرمين (من اعمال حلب) : الفان وثلاثمائة وستون ديناراً. معرة النعمان : سبعة الاف دينار. كفر طاب (بين معرة وحلب) : الفا دينار. عزاز : ستة الاف وخمسمائة دينار. تل باشر : الف وخمسمائة دينار. عين تاب : تسعة وثمانون دينار. بالس : اربعة الاف دينار. منبج واعمالها : ثمانية عشر الف دينار وخمسمائة وستون ديناراً. بزاعة والباب ثلاثة الاف دينار. قلعة نجم (القريبة من منبج) : ثلاثمائة دينار. قلعة جعبر : سبعة الاف وستمائة وستة وتسعون ديناراً. الرقة : ستة وعشرون الفاً وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً. الرها : ثمانية الاف وخمسمائة دينار. حران : ستة عشر الف وستمائة واحدى وسبعون ديناراً. سنجار : سبعة الاف وثمانية دنانير. الموصل واعمالها : ثمانية وثلاثون الفاً ومائة وستة واربعون ديناراً. نصيبين : عشرة الاف واربعمائة وستة وثمانون ديناراً. عربان (في الخابور) : خمسة الاف وسبعمائة دينار. بطنان (في الخابور) : مائتان وخمسون ديناراً. تبنين (القريبة من بانياس) سبعمائة وخمسون ديناراً. السمسمانية (في الخابور) : الف دينار. قرقيسياء : الفا دينار. السكير (في الخابور) : مائتا دينار. ماكسين (في الخابور) : خمسة الاف دينار. المجدل (من الخابور) : ثلاثة الاف وخمسة دنانير. الحصين (في الخابور) : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً. الجحشية (في الخابور) : مائة

دينـــــار. المحوليـــــة (فـــــي الخـــــابور) : مائـــــة وثلاثـــــة وســـــتون دينـــــاراً. الرحبة : ستة عشر الفاً وسبعمائة واربعون ديناراً ". وفي خاتمة المنشور ينقل ابن واصل عن معين الدين محمد – حفيد القيسراني الوزير – وهو مصدر هذا المنشور الذي حصل عليه كما يبدو من جدّه ؛ ترد العبارة التالية : " وكل بلد من البلاد المذكورة فصّل في التوقيع جهات ما اطلق من مكوسه، ولكنني اقتصرت على ذكر الجمل طلباً للاختصار "[293]. كما ان ابن واصل نفسه ينساق وراء نزعة الاختصار، فلا يمضى في سرد قائمة معين الدين حتى النهاية، ويختتم عرض الارقام بقوله : " وغير ذلك ما عيّناه خوفاً من الاطالة "[294].

وفي عام (569 هـ) ، السنة التي توفي فيها، قام نورالدين بجملة (تطهير) اخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه (فريضة الاتبان) في بلاد الشام، واصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الاصفهاني. وقد اطلع ابو شامة على نسخة المنشور وعلامته بخط نور الدين (الحمد لله)، ومما جاء فيه : " وبعد : فإن من سنتنا العادلة.. وعوائد دولتنا القاهرة : إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم. وما نزال نجدد للرعاية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ اعمال بلادنا المحروسة ونصفها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما اسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى.. وقد اطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الاتبان المقسّطة على اعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة ومزارعها الجارية في الاملاك. وجميع ما يسقط بعد المقاسمة من الاتبان على الضياع.. المقطعة بسائر الاعمال المذكورة.. وسبيل النواب إطلاق ذلك على الدوام، وتصفية آثاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين وما بعدها على تعاقب الايام والسنين "[295].

ويلخص العماد الاصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب " سوى الجزية والخراج.. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج "[296]، ولعل المراد بالعبارة الاخيرة فريضة الزكاة، ولعله يشير بتكراره المعهود هذا، إلى الاسلوب العادل في جباية الجزية والخراج. ومهما يكن من امر فإن رجلاً ملتزماً كنورالدين ما كان يتهادن ابداً في فريضة شرعية أساسية كالزكاة. ويؤكد كلّ من ابن الاثير وابي شامة ما ذهب اليه العماد بروايتين تحملان الدلالة ذاتها. فاما اولاهما فتقول : " ان نور الدين لم يترك في بلد من بلاده ضريبة، لا مكساً ولا عشراً، بل اطلقها جميعاً في بلاد الشام والجزيرة والموصل وديار مصر وغيرها مما حكم عليه "[297]، واما ثانيتهما فتقول : " استدعى نور الدين يوماً موفق الدين خالد (القيسراني) وقال : تعال.. اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والاعشار واكتب للمسلمين : أنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم. فكتب موفق الدين توقيعاً "[298].

– 3 –

لقد بلغ الرجل قي موقفه من الرسوم والضرائب حدّ الحساسية المفرطة التي كانت تقضّ مضجعه وتقلق ضميره.. فكان يتهجّد في اعماق الليل ويرفع يديه إلى السماء باكياً متضرعاً ويقول : ارحم العشَّار المكَّاس. ويحاول ان يبرر – امام الله وامام الناس – أخذ الضرائب فيقسم: والله ما اخرجناها الا في جهاد عدو.. ويتقدم إلى الخليفة العباسي يطلب منه ان يجعله المسلمون جميعاً في حلّ مما كان قد اخذ من اموالهم، فيستجيب الخليفة "ويجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك "[299].

والحادثة التي يقصّها علينا ابن الاثير في الباهر[300]، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع : الضمير الحساس الذي يشفق من شبهة الظلم الاجتماعي، أيا كان حجمه ، ويرفض ان يدخل خزينته درهم واحد بغير حق خشية ان يسأل عنه يوم القيامة ويحمل وزره هناك. هذا بينما كانت تنصّب في خزائن اخرى دماء الناس ودموعهم وعرقهم دونما رادع من عقاب أو وازع من ضمير.. " حكى لي من أثق به – يقول ابن الاثير – أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالا انكره. فسأل عنه فقيل : ان القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا، فقال: ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر باعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فرده إلى الخزانة مرة اخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : انه له. فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة اخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول : قل لكمال الدين : انت تقدر على حمل هذا المال. واما انا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى. يعاد قولاً واحداً ".

ان هذا الموقف ينقلنا بالضرورة إلى جانب من اهم جوانب سياسة نورالدين الاجتماعية والمالية، ذلك هو حرصه العجيب على الاموال العامة.. اموال الامة التي هي حصيلة كدّها وكدحها ودمعها وعرقها.. سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

وهذه المسألة الخطيرة تبدأ في برنامج نورالدين الاجتماعي من المحور الاساسي لسياسات الحكام والقادة.. من الذات.. من القدرة الاخلاقية على التجرد والنزاهة ومجابهة إغراء المال والسلطان.. ثم تسلك طريقها، بعد نجاح عملية (التغيير والممارسة الذاتية) صوب الخارج، لكي تطبع اليد الاخلاقية الملتزمة بصمتها على صفحة العالم، تماماً كما فعل الرسول عليه السلام وكما فعل خلفاؤه الراشدون.. وعمر بن عبد العزيز... وعشرات غيرهم من قادة الاسلام

في تاريخه المضني الطويل.. ولقد تحدثنا طويلاً عن ممارسته الذاتية هذه تجاه المال والاغراء لدى تحليلنا لشخصيته.. ولنا الان ان نتلمس بعض ملامح ومعطيات موقفه (الخارجي)، – إذا صح التعبير – تجاه المال العام، قدر ما يتسع له الموضوع.

في عام 551 هـ كُشف احد كبار موظفي دمشق : ابو سالم بن همام الحلبي المشرف على الديوان.. بدأت المسألة بشائعات عن تصرفات الرجل وأنه يستغل منصبه للاثراء الشخصي، فجرى معه التحقيق وثبتت صحة الشائعات.. فما كان من نور الدين الا ان امر بالقبض عليه حالا واعتقاله في دمشق ريثما يصدر امر جديد بعد التحقيق الكامل عن التهمة الموجهة اليه. ثم ما لبث هذا الامر ان صدر : ان تحلق لحية الرجل ويركب حماراً مقلوباً، وخلفه مَن يعلوه بالدرة، وان يطاف به في اسواق دمشق بعد تسويد وجهه، وينادى عليه : هذا جزاء كلّ خائن. وأقام الرجل في الاعتقال اياماً ثم صدر امر بنفيه إلى حلب "... فمضى على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه وتعديد مساويه "[301].

وقد سبق وان مرّ بنا كيف ان سعد الدين كمشتكين، نائب نور الدين في الموصل، أخذ من رجل الف دينار بعلّة عللها، فتقدم الرجل بظلامته إلى العماد الاصفهاني " فأمرني نور الدين – يقول العماد – بردها عليه. فأجاب كمشتكين : ما ينفعني الا كتابه وتوقيعه فأنهيت ذلك إليه فقال : ما معناه ؟ اما يعلم كمشتكين انك كاتبي وأميني ولا تكتب الا بأمري ؛ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه " وحينذاك أسرع كمشتكين فردّ على الرجل الالف دينار[302].

ويوماً حضر اليه جماعة من التجار وشكوا اليه ان القراطيس (أجزاء الدينار). كان كلّ ستين منها بدينار، فصار سبعة وستون بدينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر. وأشاروا عليه ان يضرب الدينار بأسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس. فسكت وقتا طويلاً ثم قال : " إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كلّ واحد منهم عنده عشرة الاف وعشرون الف قرطاس، إيش يعمل بها ؟ فيكون ذلك سبباً لخراب بيته !! ورفض – من ثم – الاستجابة لمطلب التجار "[303].

وعندما دخل شيزر عام (552 هـ) – بعد ان خربتها الزلازل – لم يكن لينسى ان هنالك مالا كثيراً خلفه أميرها السابق وان عليه المطالبة به والبحث عنه لانه أصبح جزءاً من أموال الامة العامة.. ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الامير عن هذا المال وهددها، وكيف انها ذكرت له ان الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم بشيء، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الانقاض[304]. ولاندري ان كان المال قد عثر عليه أو لا ؟ ولكن الاهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه !!

ويحدثنا ابو طاهر الحموي الفقيه فيقول : كنت عند نورالدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الاملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان

قال : إني عزمت على انتزاع أملاك هذه المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إليّ الخبر من الثقاة ان جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى اخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق (وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية)، فقلت له : أيها الملك ان الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الامور إذا رفعت اليك، فان أهل المعرة خلق كثير، فكيف تستمدّ تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الاملاك من أربابها بمجرد هذا القول ؟ لا يجوز !! فأطرق نورالدين وقتاً طويلاً ثم قال : إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك. والتفت إلى كاتبه قائلاً : اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك[305].

وعندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام (566 هـ) ليكون مسجداً جامعاً للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى امر الاشراف على بنائه، لا سيما وانه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة.. وإنما بحث عن المشرف الامين الذي يطمئن اليه فكان عمر الملاّء.. الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الاصفهاني، شاهد العيان، عن الرجل فيقول : " إنما سمي بذلك لانه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوى بها " وكان يهب كلّ ما يصل اليه ولا يستبقي لنفسه شيئاً.. وكان العلماء والفقهاء والامراء يزورونه في زاويته ويتبركون به . وكان نور الدين من أخصّ محبيه، يستشيره في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته[306]. هذا وقد أُنفقت على الجامع الكبير اموال كثيرة، واشترى عمر الملاء الاملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الاثمان. وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام 568 هـ تقدم اليه عمر الملاء بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نورالدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل... عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة.. فاستراح إلى النتيجة [307].

وحكي معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نورالدين الشهيد قال : انكسر على ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام مال جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عفار بما قيمته ثمانية الاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه ظل في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته[308].

وقد أنشأ نور الدين مؤسسته الشهيرة (دار العدل) في دمشق لكي تكون محكمة عليا – كما رأينا – توقف كبار الموظفين عن تجاوز صلاحياتهم، وعن اعتمادها للكسب الخاص على حساب اموال الناس وممتلكاتهم. يتحدث ابن الاثير عنهم بأنهم " اقتنوا الاملاك فأكثروا، وتعدى كلّ واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ؛ فكثرت الشكاوى إلى قاضي القضاة كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه، فانهى الحال

إلى نورالدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل. فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه وقال لهم : امضوا إلى كلّ من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وارضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له : إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال : خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من ان يراني نورالدين بعين اني ظالم.. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم... "[309]. ولقد توفي أسدالدين شيركوه هذا، رجل نور الدين الاول وفاتح مصر، ولم يترك بعد موته سوى دنانير قليلة.

وقد مرَّ بنا – كذلك – كيف ان نور الدين كان يجلس بنفسه في هذه الدار يومين أو ثلاثة للحكم في القضايا المختلفة وحماية حقوق المواطنين كافة مسلمين كانوا أم نصارى أم يهوداً.. ورجالا كانوا أو نساءً، وافراداً عاديين أم امراء وموظفين كباراً !! كما مرّ قوله المألوف الذي كان يردده على أصحابه : " حرام على كلّ من صحبني الا يرفع إلى قصّة مظلوم لا يستطيع الوصول الي "[310].

وهنا بالذات ترتبط مسألة العدل الاجتماعي وحماية الاموال العامة، بالعدل في مفهومه الشامل وآفاقه الرحبية.. وقد تحدثنا عنه هناك في الفصل الثاني ورأينا كيف كان موقف نورالدين محمود منه.

– 4 –

كان نور الدين – بحق – صديق الفقراء !! كان يحبهم، ويصادقهم، ويزورهم في مساكنهم، ويحترمهم، ويمنحهم، ويحميهم.. فكانوا – في المقابل – قاعدته الشعبية الحقيقية التي تحفظه وتقاتل من ورائه في ميادين السلم والحرب على السواء.

ليس هذا فحسب بل إنه كان – كما سبق وان مر بنا – يعيش تجربتهم، بل يتجاوزها إلى مواقع أكثر مسغبة وشظفاً.. ونحن لازلنا نذكر رواية ابن كثير : " كان نور الدين عفيف البطن والفرج مقتصداً في الانفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا "[311].

يجمع المؤرخون على ان احداً من الامراء لم يكن يجلس في مجلس نور الدين بلا إذن، سوى نجم الدين ايوب، لتقدمه في العمر كما يبدو، واما الامراء الاخرون : شيركوه وابن الداية نائب حلب وغيرهما، فكانوا يقفون بين يديه !! ومع هذا فكان إذا دخل احد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وأقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على

الاعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم !! فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا[312].. فهي ليست المنة إذن من الحاكم على المحكوم، وهو ليس عطاء التفضَل من الذين يقدرون للذين لا يقدرون.. ولكنه الحق.. وليس الحق كله، إنما هو جزء مما يستحقه الفقراء من المال العام، فهو يعيده إليهم فإذا قنعوا ببعضه فلهم المنة عليه.. وإنها لالتفاتة نفسية ليست غريبة على ذكاء الرجل وتصوره للمسألة الاجتماعية.. إنه هنا يذكرنا برسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم.

فليس بمستغرب إذن أن يغدو هؤلاء جيشه المعنوي المعبّأ الذي يضرب بسهام لا تخطئ.. قال له أصحابه يوماً وقد رأوا ما تستنزفه مصارف الجهاد من أموال الدولة : إن لك في البلاد إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ؛ فلو استعنت بها الان لكان أمثل. فأجابهم غاضباً : والله إني لا أرجو النصر الا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني الا إذا رآني بسهام قد تخطئ وقد تصيب ؟ ثم ان هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم[313]. وهو في أعقاب هزيمة منيت بها قواته عام (558 هـ) يكتب إلى زهاد بلاده وعبادها يذكر لهم ما نال المسلمين من القتل والاسر ويستمد منهم الدعاء وان يسعوا للقيام بحملة واسعة لحث المسلمين على الجهاد[314].

ويبدو هذا التعاطف بين نور الدين وفقراء أمته وكادحيها، أكثر ما يبدو لدى هجماته المتكررة على دمشق، كما سبق وان مرّ بنا، فكثيراً ما كان يخرج إليه فقراء دمشق وضعفاؤها يلتمسون عطاءه فلم يكن يخيب احداً منهم[315]، وكثيراً ماكفّ أيدي أصحابه عن العبث والافساد في ضياع المنطقة وبساتينها خوفاً على كدح الفلاحين من ان يداس ويتفتت تحت أقدام المقاتلين[316]. وكثيراً ما أعلن أنه إنما جاء لحماية فلاحي المنطقة " الذين أخذت اموالهم وتشتت نساؤهم واطفالهم بيد الفرنج.. وعدم وجود الناصر لهم " فلا يسعني – يقول نورالدين في رسالة بعث بها إلى زعماء دمشق – " مع ما أعطاني الله وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم، وهذا ما لايرضي الله تعالى ولا احداً من المسلمين.. "[317]. وكانت المكاتبات جارية بينه وبين اهالي دمشق الذين كانوا يرون فيه رجل العدل والديانة والاحسان. وتم الاتفاق على ان ينقلبوا على زعامتهم الطاغية وان يفتحوا الطريق لنور الدين[318]. ويحدثنا ابن القلانسي كيف ان بعض قطاعي الخشب بادر بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه وفتحه فدخلت قوات نور الدين، حيث قرئ منشوره بإزالة كثير من

المظالم والمكوس، فضجّ الناس " من التنّاء والفلاحين والمتعيّشين، بالدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه "[319].

وفي مؤسساته القضائية كان نور الدين يأمر بإزالة الحجاب " حتى يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني، فيكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواتها به، فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده ويجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة [320].

والقوائم الادارية في دولة نور الدين تشير إلى كثير من الاسماء التي لمعت في عصره ولم يكن أصحابها سوى خدم ومماليك وفقراء.. كان نائبه في قلعة الموصل : سعد الدين كمشتكين أحد خدمه[321]، وكان قايماز الحراني والي حران مملوكاً له[322]، وتربع على دست الحكم في الرها خادم أسود لنور الدين[323]، وكان يتولى قلعة حلب في السنة التي توفي فيها نور الدين : جمال الدين شاذبخت الخادم الهندي عتيق نورالدين[324].. وقد رأينا كيف ان نور الدين اختار للاشراف على بناء الجامع الكبير في الموصل شيخ زهادها (عمر الملاّء) الذي كان يتقوت من ملء تنانير الجص.. ليس هذا فحسب بل ان نور الدين يذهب إلى الحد الاقصى في مشاركته فقراء دولته وتعاطفه معهم فيستقرض من عمر الملاء في كلّ رمضان ما يفطر عليه، وكان الرجل الزاهد يبعث اليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان[325].

– 5 –

الا ان نور الدين لم يقف عند هذا الحد في تعامله مع أبناء أمته، بل سعى إلى تقديم أوسع الخدمات لهم، والى جعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة لتنفيذ هذه الخدمات ومدّها إلى أبعد الافاق، فيما يعدّ – بحق – قمة اجراءات نور الدين الاجتماعية.

لقد امتدت هذه الخدمات إلى مساحات النشاط الاجتماعي كافة، وسعت إلى تغطية شتى الحاجات : ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل والجنس، وانتهاءً بقضايا الروح، مروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والانتاجية.. وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالا

مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الاعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الاسر وحيناً ثالثاً عن طريق انشاء مؤسسات ومرافق : كالمارستانات والملاجئ ودور الايتام والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والاسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها.. وحياناً خامساً عن طريق عدد من الاجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الامة.

ولنا الان ان نتتبع بعض نماذج هذه الخدمات بصيغها المختلفة لنرى إلى أي حدّ كان نور الدين يرى في (الدولة) جهاز خدمة وانجاز، لا أداة قسر واستنزاف.. فزمانه كما يقول ابو شامة " مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم "[326].

بنى نورالدين المدارس، وانشأ الخانقاهات وأكثر منها في كل بلد ، وأوقف عليها الوقوف الكثيرة، وأمر ببناء الربط والخانات في الطرقات[327]، وأوقف أوقافاً على المرضى والمجانين وبنى المكاتب لليتامى، وأوقف على سكان الحرمين، وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من جبل (أحد)، وأقام الجسور والقناطر وجدد كثيراً من قنّي السبيل، وأوقف كتباً كثيرة[328] وعندما دخل دمشق عام (549 هـ) أحسن إلى اهلها وبنى لهم المدارس والمساجد والربط، ووسع لهم الطرق على المارة كما وسع الاسواق، وأحاط السور على حارة اليهود وكان خراباً، وأغلق عدداً من الابواب وفتح أخرى.. وبنى في دمشق مارستاناً لم يبن بالشام قبله ولابعده مثله، وأوقف وقفاً على من يعلّم الايتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وللمجاورين بالحرمين نفقة لطعامهم وكسائهم. وله أوقاف دائرة على جميع ابواب الخير، وعلى الارامل والمحتاجين. وكان الجامع داثراً فولى إدارته القاضي كمال الدين الشهروزي، فأصلح أموره وأضاف إلى أوقافه المعلومة تلك التي لايعرف واقفوها.. وسمى مال المصالح ورتّب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتام وغيرهم[329].. وببناء الخانات في العراق أمن الناس وحفظت اموالهم وباتوا في الشتاء في وقاية من البرد والمطر.. وأقام الابراج على الطرق العامة بين بلاد المسلمين وخصومهم الصليبيين وجعل فيها من يحفظها، ومعهم الحمام الزاجل، فإذا رأوا احداً من الاعداء أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلا يبلغ العدو منهم غرضاً[330].. كما بنى وجدّد أسوار معظم مدن الشام وقلاعها : كدمشق وحلب وحماة وحمص وبعرين وشيزر ومنبج وغيرها، وحصّنها وأحكم بناءها وأخرج عليها من الاموال ما لا تسمح به النفوس[331].

ويحدثنا ابن جبير كيف انه شاهد في دمشق لدى زيارته إياها عام 580 نحو عشرين مدرسة، ويقف طويلاً لكي يصف لنا ما شاهده في البيمارستان الكبير الذي انشأه نور الدين : القومة وبأيديهم السجلات المحتوية على أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها من الادوية

والاغذية وغير ذلك.. والاطباء يبكرون إليه كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم. وللمجانين ايضاً ضرب من العلاج وهو في السلاسل موثقون[332]. ويصفه ابن كثير بأنه ليس له في البلاد نظير، ومن شروطه انه مقصور على الفقراء والمساكين، واذا لم تتوفر بعض الادوية التي يعزّ وجودها الا فيه فلا يمنع منه الاغنياء[333]... وقد زاره ابن الاثير كذلك وقال : ان نور الدين قد أكثر من بناء البيمارستانات في البلاد الا ان أعظمها وأكثرها خرجاً ذلك الذي بناه في دمشق[334].

ويصف لنا ابن ابي أصيبعة[335]، كيف كان مدير الامور الطبية في المارستان : أفضل الدولة ابن المظفر الباهلي يدور على المرضى فيه ويقوم بفحصهم بنفسه، وبين يديه الاطباء الصغار والخدام، وكان اذا ما كتب دواءً لمريض ما لايؤخر عنه.. وكان يخصص – بعد ذلك – ثلاث ساعات في اليوم يجلس خلالها في مكتبة المارستان الطبية التي أوقف نور الدين كتبها، والتي كانت تتضمّن جملة كبيرة من الكتب المتخصصة، ويجتمع إليه هناك الاطباء والمشتغلون بالعلم فيجلسون بين يديه ثم تجري مباحث وقراءات طبية يقوم بها التلاميذ، ولا يزال معهم في مباحث واشتغال ونظر في الكتب حتى تمضي الساعات الثلاث إلى نهايتها فيغادر المارستان إلى بيته لكي ما يلبث ان يستأنف نشاطه المعتاد في اليوم التالي. وقد لعبت هذه المؤسسة دوراً مهماً في تنشيط الحركة الطبية في دمشق، فخرجت عدداً من مشاهير الاطباء، كما جذبت إلى بلاد الشام عدداً آخر منهم من مشارق الارض ومغاربها[336].

ويلي هذا المارستان (المركزي) في الاهمية بيمارستان حلب الذي وصفه ابن واصل بأنه كان هو الاخر في غاية الحسن[337]. وتذكر إحدى الروايات ان نور الدين تقدم إلى أطبائه ان يختاروا من حلب اصحّ بقعة في هوائها، لإقامة البيمارستان عليها فذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة أقسام وعلقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الربع الذي يقع فيه باب أنطاكية فبنوا المارستان فيه، وأوقف نور الدين عليه قرية وعدداً من المزارع والطواحين والكاكين[338].

ويصف ابن جبير المدرسة التي بناها نور الدين في دمشق.. ثم يقول : " أما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرَّد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر "[339]. ويحدثنا كيف انه ما من خان عبر الطريق إلى دمشق، الا وفيه ماء جارٍ يتسرب إلى سقاية وسط الخان كأنها صهريج[340]، وان الحمامات تنتشر في معظم قرى دمشق[341]، وان في دمشق وحدها وما يحيط بها من أرباض مايقرب من مائة حمام وأربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها " فليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة "[342]. وثمة مشهد في أطراف دمشق يدعى الربوة، حوّل إلى ما يشبه الفندق المجاني، وأوقفت له الاوقاف الكثيرة فمنها ما خصص لاطعام البائتين فيه من الزوّار، ومنها ما خصص

للاغطية، ومنها ما خصص للمشرف وسائر العمال والخدم كرواتب تدفع لهم في آخر كل شهر. وما من خدمة من الخدمات الا وقد خصص لها قدر معلوم من المال " وهي خطة – يقول ابن جبير – من أعظم الخطط.. والغريب المحتاج هنا – اذ كان على طريقة الخير – مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه "[343].

وقد شهدت – حلب – كذلك نشاطاً واسعاً في بناء الحمامات العامة[344]، وحفر القنوات المتشعبة، وإقامة أحواض الماء لتغطية حاجة المحلات المختلفة هناك[345].

وعندما دخل نور الدين الموصل عام (566 هـ) وجدها بأمسّ الحاجة إلى جامع كبير يكون بمثابة مؤسسة مركزية للعبادة والتعليم، فبحث بنفسه عن موضع مناسب وسط المدينة، وأمر أن يضاف إلى الارض التي اختارها ما يجاورها من الدور والحوانيت " على ان لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه " وان يعوضوا عنها تعويضاً عادلاً.. وولى الشيخ عمر الملاء أمر الاشراف على البناء، فأنفقت عليه أموال كثيرة قيل انها بلغت ستين الف دينار، وقيل ثلاثمائة الف دينار.. ومهما يكن من أمر فإن الجامع تم بناؤه عام (568 هـ) وقدم نور الدين فصلى فيه، وأوقف عليه بعض قرى وضياع قريبة من الموصل، ورتب مدرّسه وخطيبه ومؤذنيه، وأمر باستكمال أثاثه[346]. ومنذ ذلك الوقت والجامع النوري الكبير في الموصل يؤدي خدماته الواسعة في ميادين العبادة والتعليم على السواء.

ويروي العماد الاصفهاني ان نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله وعيّن له أوقافاً " ولو اشتغلت بإحصاء وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد.. ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغني عن خبرها بالعيان "[347]. ويذكر ابن الاثير نقلاً عن احد العارفين بأعمال الشام ان وقوف نور الدين في وقتنا هذا (608 هـ) يبلغ تسعة الاف دينار شهرياً " ليس فيه ملك غير صحيح، شرعي ظاهراً وباطناً "[348]. هذا عن الاوقاف التي رصدها من ماله الخاص، فكيف إذا عن الاوقاف التي تستمد من المال العام[349]؟!

وقد شهد عام (552 هـ) ، وهو نفس العام الذي أسقط فيه نور الدين حشداً كبيراً من الضرائب بموجب المنشور الشهير الذي سبق وان أشرنا إليه، شهد جملة خدمات اجتماعية واسعة النطاق كلفت مالية الدولة مقداراً ضخماً بلغ مائتي الف دينار !! وقدر ريْع الوقوف التي رصدت تلك السنة بثلاثين الف دينار. ويشير ابو شامة إلى بعض الجهات التي شملتها الخدمات والوقوف المذكورة : المدارس بأئمتها ومدرسيها وفقهائها، الغزاة والمجاهدون، دور الصوفية، الربط، الجسور، البيمارستانات، الجوامع والمساجد، الاسوار، خدمات الحجاج على طريق الحجاز، فكاك الاسر، تعليم الايتام، الضمان الاجتماعي للغرباء والفقراء ".. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور.. فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه "[350]. ومعنى هذا – إذا

صحّت تخمينات ابي شامة – ان المبلغ الذي تضمنته تلك الحملة بلغ ما يقرب من نصف مليون دينار !!

وفي عام (569 هـ) ، السنة التي توفي فيها نور الدين، شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية اخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات : فزيدت الاوقاف ووسّعت الصدقات، ووفرت النفقات. ويجمع عدد من المؤرخين على ان تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للاعجاب وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة، ملبساً ونفقة وإشباعاً : إكساء الايتام والنسوة الايامى، تزويج الارامل، إغناء الفقراء، ختان الاطفال[351]. ويعلق العماد الاصفهاني على حملة تلك السنة بقوله : ".. حسبنا ما تصدّق به على الفقراء في تلك الاشهر، فقد زاد على ثلاثين الف دينار ذهباً. وكان إذا أمر بصدقة غلّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من اهل كلّ محلة فيقول لكل واحد : كم تعرف في جوارك من صاحب فاقة ومستحق ومعيل. وغيرهم ؟ فيقول : أعرف كذا وكذا. فيسلم إليه صدقات أولئك الاعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كلّ منهم بثبت ما فرّقه "[352].

وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثني عشر الف دينار في فداء أسرى المغاربة، وإذ اختلط بهؤلاء نفر من أهل حماة الشاميين ليسوا بمغاربة، أمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال : " هؤلاء يفكّهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم "[353]. وأمر بتغطية أجرة مسكن رجل اضطرته الشيخوخة إلى القعود[354]، وخصص جرايات دائمة لما يزيد على الثلاثمائة والخمسين من اليتامى الصبيان في دمشق[355]، وضمن مستقبل أبناء المقاتلين وأحفادهم بذلك الاجراء الشهير الذي اتخذه بها الصدد، فكان إذا توفي احد أجناده وخلف ولداً أقرّ إقطاعه عليه، فإن كان الولد كبيراً استقلّ بنفسه، وان كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يوثق به، فيتولى أمره إلى ان يكبر، فكان الاجناد يقولون[356]: " هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها "[357].

***

وتكون نتيجة هذا كله ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الاساسية.. ان المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب.. ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يمّحي فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل، فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الاساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء ذلك.. الافاق الرحيبة التي جاء الاسلام لكي يقود الناس إليها..

كلنا نذكر تجربة (المؤاخاة) التي أشركت المهاجرين والانصار في تحقيق هذا الاشباع، وكلنا نذكر كيف ان هذه التجربة مكنت المجتمع الاسلامي الاول من التحرك بقدرة وحيوية صوب أهدافه الاوسع والابعد.. على هدى كلمات الله وخطوات رسوله العظيم عليه السلام.. وها نحن نلتقي بالمجتمع نفسه يبعث من جديد في عصر نور الدين محمود، بعد إذ تحقق التقابل الفعّال بين القيادة والقواعد..

وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا (المجتمع) يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين : ".. إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (580 هـ)، خرج الناس لتلقيهم، الجمّ الغفير رجالا ونساءً، يصافحونهم.. وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الاطعمة.. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم – إن أحبّ – ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أو ما شاء. ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى.. "[358]. وفي مكان آخر يقول شاهد العيان هذا – مثمناً أخلاقية المجتمع الاسلامي هناك : ".. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء.. ولا سيما أهل باديتها... " لكفى بها فضلاً[359].

– 6 –

وثمة سؤال يفرض نفسه قبل المضي في هذا الفصل إلى نهايته : ان نورالدين محموداً أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة.. وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية اكبر منها حجما كانت تنصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤنا ورسوما ومكوسا.. فمن اين كانت دولة نورالدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير باسقاط الضرائب والمكوس، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون ان يصيبها الخلل فتتوقف – على الاقل – عن العطاء ان لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق واستعادة التوازن والقدرة على العمل ؟!

هنالك إجابة تجيء بمثابة بديهية من البديهيات التي لاتحتاج – أساساً – إلى قول : ان دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال، وبشكل دائم، لما واصلت سياساتها تلك حتى آخر لحظة، ولما وصفها العماد بانها كانت " نافذة الاوامر منتظمة الامور "[360].

ان مراجعة سريعة للجانب الاخر من سياسة نور الدين المالية تمنحنا الجواب المقنع على هذا السؤال ؟

فهنالك – اولا – الضرائب (الشرعية) وهي الضرائب الاساسية الاكبر حجماً والاكثر عطاء ودواماً والزاماً وقبولاً لدى ابناء الامة ومسؤوليها على السواء... خراج الاراضي وجزية الرؤوس وزكاة الاموال.. ان نور الدين لم يتهاون مطلقاً في أي من هذه الضرائب [361] لانها تمثل حقاً شرعياً ثابتاً ليس بمقدور حاكم أو محكوم تجاوزه على الاطلاق.. ونور الدين يحكم ارضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذمييها، ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة اموالهم قبل ان ترغمهم الدولة على الدفع. ولنا ان نتصور – من ثم – كيف ستشكل هذه الموارد الثلاثة ضماناً دائماً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والافلاس[362].

وفي مقابل هذا عمد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد.. فهو من جهة سعى إلى حماية المزراعين والفلاحين من كافة صنوف الاذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن ان تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم، وتحوّل الارض الشامية إلى ساحة قتال لاتعرف طعم السلم الا قليلاً.. وقد مرّ بنا كيف ان نورالدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الاربعينات كان يشدد على اصحابه وجنده الا يفسدوا المزارع والضياع والقرى والا يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق.. كما انه اعلن نفسه حامياً للفلاحين.. ونتذكر رواية ابن القلانسي : سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال : " لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافِّ أيدي اصحابه عن العبث والافساد في الضياع، وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم.. " وكتب إلى زعماء دمشق : " إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وانما دعاني إلى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من اهل حوران والعربان بان الفلاحين الذين أخذت اموالهم وشتت نساؤهم واطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلُ لي القعود عنهم والانتصار لهم.. "[363]. وغير هذه الرواية كثير يمكن الرجوع اليه في اماكن اخرى من هذا البحث.

ونور الدين – من جهة اخرى – سعى – كما رأينا – إلى تخفيف الضرائب عن الفلاحين وإسقاط حشد كبير مما كان يفرض عليهم ويثقل كاهلهم ويضطرهم – احياناً – الى التخلي عن نشاطهم الزارعي الذي ما كان يعود عليهم الا بمزيد من الفقر والشقاء.. والان وقد

خففت عنهم الرسوم والضرائب إلى الحدّ الذي رأينا، فإن حافزاً قوياً سيدفعهم إلى مزيد من العمل والانتاج وهم مطمئنين إلى ان حصيلة كدحهم وكدهم لن ترجع في نهاية الامر الا اليهم.

وقد رافق ذلك – ولا ريب – وقف لكافة الاساليب الجائرة في جباية الضرائب واعتماد اساليب جديدة اكثر تحرياً للعدل وانصافاً للفلاحين في دولة كانت ترى الظلم جريمة كبرى ينزل بمرتكبها اشد العقاب.. وفضلاً عن هذا وذاك فان الخدمات التي تكفّلت دولة نور الدين بتقديمها للمواطنين انصبّت في مساحات واسعة منها على إعانة المزارع لتقديم اقصى ما يستطيع من جهد في استثمار ارضه.. فقد شقّت الترع وبنيت القناطر والجسور وعبّدت الطرق وأقيمت الخانات عبر مسافاتها الطويلة، مما لعب دوره في تنشيط الانتاج الزراعي، حتى ان ابن العديم، المؤرخ الحلبي، يقول : " انعمر بلد حلب في زمان نور الدين لعدله وحسن سيرته، حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا وادٍ الا وفيها سكان ولها مغلّ.. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن اكثر من المدينة "[364]. وقد ادى تنشيط الانتاج الزراعي بهذه السياسات الحصيفة – ولا ريب – إلى تنمية الحصيلة الخراجية المترتبة عليه.

وهنالك – ثانيا – الغنائم التي كانت تمثل – بحق – مورداً من اوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الاعداء، وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في اغلب الاحيان. يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال : " عاد نور الدين بعد فتح حارم (عام 559 هـ) إلى حلب بالاسارى والغنائم وامتلآت حلب منهم فبيع الاسير بدينار وفرقهم نورالدين على العساكر.. ثم فاداهم، وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع، وقال آخرون : يفادى بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة الف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله ان جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة، وجميع ما وقفه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد "[365].

ستمائة الف دينار حصيلة معركة واحدة.. فكيف بسائر المعارك التي انتصر فيها نورالدين والتي تغطي فترة حكمه من اقصاها إلى اقصاها ؟ ثمة رواية اخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة : وقع صاحب طرابلس اسيراُ بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة الف دينار ومائة وخمسين حصاناً والفين من الدروع والزرود، ومقادير كبيرة من الاسلحة وخمسمائة اسير من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي[366] اما ابو شامة فإنه يطرح ارقاماً اخرى : مائة وخمسون الف دينار، وفكاك الف اسير من المسلمين[367]. واياً كان الامر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الامير الصليبي كانت كبيرة حقاً فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الاقاليم الكبيرة التي فتحها كمصر واليمن وغيرهما[368]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية ادركنا كم كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي.

وهنالك – ثالثا – الاموال العظيمة التي خلفها ابوه عماد الدين زنكي والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين – لحسن الحظ – بدلاً من أخيه الاكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب ؛ فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام (544 هـ) وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كلّ من ابن الاثير وابن العديم " كثيرة جداً "[369]، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال وكان من بين الاخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب[370].

وهنالك – رابعا – تلك الامانة العظيمة التي تميز بها نور الدين تجاه اموال الامة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص.. وان لنا ان نقدّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين.. وان لنا ان نقدر – بالمقابل – ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم.. وإننا نتذكر هنا عبارة فلها وزن وهو يتحدث عن سياسة عمر بن عبد العزيز المالية : " لقد عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم، والاغلب ان ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين "[371].. وما قيل عن عمر ينسحب – بالضرورة – على نورالدين محمود.

وهنالك – خامساً – وقف نورالدين للنزاع الداخلي والحرب الاهلية، وتكوين دولة قوية موحدة يسودها الامن والاستقرار، رغم حالة الحرب الدائمة بينها وبين العدو الصليبي، الامر الذي وفّر على الدولة مبالغ كبيرة كانت ستضيع في غمرة الصراع الداخلي ذاك " ففي ظل الامان الذي نشره نور الدين، ثم صلاح الدين، ثم الملك الكامل اخوه، ازدهرت مدائن الشام والجزيرة الفراتية ومصر جميعاً، وتيسّرت أحوال الناس، وثبتت أسس المجتمع في هذه البلاد بعد طول تقلقل واضطراب. وقد اجتهد نورالدين في كلّ ما يمكن ان يشعر الناس بالامان ويخفف عنهم متاعب الحياة.. "[372].

وثمة – اخيراً – تلك الارضية الصالحة التي اوجدها نور الدين، والمناخ الملائم الذي سهر على حمايته، بجعله الدولة مؤسسة لتقديم أوسع الخدمات لأبناء الامة.. وإيجاد مجتمع التكافل والتضامن، حيث كان المواطن يجد – أياً كان انتماؤه الديني أو القومي – ضمان حياته ومستقبله في ظلال دولة تحميه وتخدمه، ومجتمع يعينه ويكفله.. وتجيء نتيجة ذلك كله مزيداً من الجهد والعمل والانجاز، فمزيداً من النماء للدخل القومي ولموارد الدولة على السواء.

***

ومن ثم نعرف – بعد هذا كله – لماذا " انعمر " بلد حلب في زمن نور الدين كما يقول ابن العديم، ولماذا، لم تبق مزرعة في جبل ولا واد الا وفيها سكان ولها مغلّ.. " ولماذا " صار

على ظاهر حلب من العمارة والمساكن اكثر من المدينة "[373]، ولماذا أخذت حلب تعاني من، كثرة العالم، مما دفع إلى ارتفاع الاسعار فيها رغم كثرة وارداتها[374]..

ونعرف – كذلك – لماذا وصف الرحالة الاندلسي اليهودي (بنيامين التطيلي) دمشق بأنها " البلدة العامرة " وانها " مدينة واسعة الارجاء، جميلة المنظر.. تمتد رياضها وبساتينها إلى ما مسافته خمسة عشر ميلاً من كلّ جانب " وأنه لم يجد، مثل فاكهتها وأشجارها في أي مكان آخر في العالم "[375].

كما اننا نعرف لماذا أصبح البناء في دمشق – لاول مرة – من ثلاث طبقات – كما شاهد ابن جبير – وأصبح " يحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الدنيا خلقاً " ولماذا غدت " أسواق دمشق من أحفل أسواق البلاد، وأحسنها نظاماً وأبدعها وضعاً.. "[376].

الفصل الرابع

في ميدان التربية والثقافة

- 1 -

شـهدت دولـة نـور الـدين محمـود نشـاطاً علميـاً واسـع النطـاق حيـث بنيـت المـدارس ومؤسسات التعليم في كل مكان وتدفق العلماء والادباء على بلاد الشام من المشرق والمغرب، ومنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم والطلبة الدارسين، وعقدت المجالس والندوات لمناقشة شتى المسائل والقضايا المتعلقة بفروع العلم والبحث المختلفة.. وقرّب العلماء، واستقدموا من أقطار المشرق والمغرب، وفتحت أمامهم السبل، فغدوا الطبقة الاولى واحتلوا اعلى مصاف.

ان نور الدين يعرف جيداً طبيعة العصر الذي قدّر له ان يتولى إحدى قياداته الخطيرة ويقف على ثغر من ثغوره المتقدمة ؛ بمواجهة خصم مذهبي كان قد تغلغل في الارض التي يقف عليها نورالدين، وضرب جذوره هناك فيما يزيد على نصف القرن.. انه يعرف ان تحرير الارض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب.. بل انه أوسع من ذلك بكثير.. انه مواجهة مذهبية وصراع حضاري بين امة وامة، وانه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للامة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى اعمالا جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغير والتبدّل، كما كان يحدث دائماً.

وما يقتضيه (الموقف) ليس هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. وإنما بناء امة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من ان تتفتت وتضيع.. وحينذاك سوف يتحول كلّ نصرٍ عسكري أو كسب سياسي إلى انجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً، لا مجرد تكديس شيئي لا يشده رباط.. تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار، فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها..

فالنشاط العلمي في عصر نورالدين لم يكن ابداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لاجهزة الدولة.. لكنه (تصميم) هادف يسعى إلى عملية (التأصيل العقائدي) من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيّز التاريخ (الإنسان) المتوازن الذي اراده الاسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله.

ان مفهوم التربية في الاسلام مفهوم متكامل، يسعى إلى تنمية وإغناء مقومات الشخصية كافة : فكرية وروحية وجسدية، ومحاولة استجاشتها ودفعها إلى حدود التوتّر الاقصى القدير على تقديم أكبر قدر من العطاء، مع الحفاظ الدائم على حالة التوزان الصعب بين التيارات الثلاثة في تكوين الشخصية.

واننا نلمح في تجربة نور الدين الذاتية وتعاليمه وسياساته التربوية سعياً مؤكداً من اجل تحقيق هذا الهدف : تكوين (المسلم) المتوازن الذي تنمو فيه إلى حد التوتر الفعال، وعلى خط متواز، قدراته الثلاث : الروحية والعقلية والجسدية، والذي كان كتاب الله وسنة رسوله قد سعيا من اجل إعداده بطرائقهما (المؤثرة) (المتكاملة) ليكون حجر الزاوية المتين في بعث المجتمع المسلم الذي أنيطت به الامانة الكبرى وحمل مسؤولية تغيير خرائط العالم، و (الشهادة) على مسيره ومصيره على السواء.

لقد حمل نور الدين في عقله وضميره هذه الرؤية الإنسانية الذكية للهدف التربوي، وسعى من خلال تعاليمه واوامره ومؤسساته، والقدوة (النموذج) التي صاغها بنفسه، إلى مدها إلى مواطنيه كافة.. ومارس جهداً شاقاً من اجل ان يتحقق بالتوازن والفاعلية، فبلغ بالتعبد الدائم والتقوى العميقة قمة التجربة الروحية وغدا – إذا صح التعبير – علماً من اعلام التصوّف (الملتزم) في عصره.. وبلغ بالرياضة الجادة والممارسات الفروسية المستمرة قمة التمكن (الجسدي) في عصرلم يكن يسمح للحياة فيه الا للفارس الذي يعرف كيف يركب فرسه قبل ان يرتد الطرف إلى العين، وكيف يناور خصمه، وكيف ينطلق إلى هدفه كما ينطلق ضوء الشهب في الليالي المظلمة.. وكما شهدناه في ساحات التعبد، والتقوى، يتحرق شوقاً حتى يكاد يذوب، ويغسل بدموع العين ما قد يعلق بالفؤاد من ريْنِ نراه هنا : فارساً يمتطي جواده فلا يكاد احد يحسّ ان هنالك فاصلاً بينه وبين الجواد.. ان ابن الاثير يشير إلى ان الناظر اليه يتوهم ان الرجل وجواده قد قُدّا من مادة واحدة، وكأنه قد خلق على ظهر الجواد !! رياضياً يلعب الكرة حيثما أتيح له ذلك، ويتجاوز تحديات الظلام فيوقد الشموع لكي يواصل لعبته المفضلة.. حتى إذا ما اعترض عليه احد الشيوخ، في ان ممارسته هذه قد تبعده عن ساحات الجد ؛ أجابه على ضوء الرؤية الاسلامية للمسألة : بأن رياضة كهذه تزيد من قدرات المقاتل وتمنحه المزيد من مهارات الفروسية في عصر الصراع الدائم والقتال المحتوم.. مقاتلاً.. يتقدم جنده في المعارك، ويتوغل في صفوف الخصم ببطولة فذة كانت ترفعه دوماً إلى مستوى الفدائية وتتجاوزها صوب طلب الموت !!

هذا عن تربية الروح بالعبادة، والجسد بالرياضة، وإن كنا كما علمنا الاسلام بتجربته الفذة لانرى ثمة فاصلاً بين هذه الممارسات جميعاً في صميم الشخصية البشرية، وان ما يحدث هو العكس تماماً : تأثير وتأثر دائمان بين مكونات الإنسان وبين أي من هذه الممارسات. وليس التعبد – على سبيل المثال – بفاعلية روحية فحسب، ولكنها تعامل شمولي متكامل مع العقل بجعله اكثر صفاء ونفاذاً، ومع الجسد بجعله اكثر ضبطاً وتوافقاً.. وما يقال عن (التعبّد) يمكن ان يقال عن (التفكير) و (التريّض) سواء بسواء..

هذا عن تربية الروح بالعبادة، والجسد بالرياضة، فماذا عن تربية العقل بالتفقّه والتفكير ؟ وهل اقتصر نشاط نور الدين في هذه الدائرة على حدود تجربته الذاتية، أم سعى إلى مدّه – كما هو الحال في الدوائر الاخرى – إلى الرعية كافة ؟!

لقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل ان يكون حاكماً !! وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية. ان امة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن ان تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة.. ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها اوراقها الصفراء، فلنا ان نحكم بان هنالك في القمة حفنة من الجهلاء !!

كان نور عارفاً بمذهب ابي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصّب منه ولا تحيز، فالمذاهب عنده – كما اجمع المؤرخون – كلها سواء " والانصاف سجيته فيكلّ شيء "[377]... سمع الحديث حتى حصل على الاجازة العلمية التي تتيح له ان يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهنة التحديث هذه رغم زحمة مهام عمله السياسي والعسكري، محاولة منه في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والاداء والتحديث[378]، الامر الذي يذكرنا بجهود الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز في هذا المضمار الخطير. كما ألّف كتاباً في الجهاد[379]، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية، متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين[380].

وكان الرجل لتعشقه العلم يسعى وهو في قمة السلطة " إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والاتباع لهم في حفظ حالهم "[381]. وكان العلماء عنده في المنزلة الاولى والمحل العظيم[382]، يحضرهم إلى مجلسه " فيدنيهم.. ويتواضع لهم، واذا أقبل أحدهم إليه يقوم له منذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بجديته، كأنه أقرب الناس إليه، تعظيماً وتوقيراً واحتراماً "[383].

لقد كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[384]، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت، وتخريجاً نظرياً للفروع على الاصول، وترفاً فكرياً.. وإنما كانت نشاطاً جاداً من اجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة ؛ بالحلول المستمدة من شريعة الاسلام وفقهها الواسع الكبير.. ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها، بما ينسجم وعقيدة الاسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم.. ومن ثم فإن ندوات كهذه هي أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استصدار تشريع أو إقرار قانون. ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي عقده نورالدين مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من اجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة [385]. ويمكن ان نشير هنا – كذلك – إلى رواية ابن الاثير التي يشبّه فيها مجلسه بمجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم.. ولا يذكر فيه الا العلم والدين وأحوال

الصالحين، والمشورة في امر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا.." [386]، والى روايته الاخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من " الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين " " فأخذ ما أفتوه بحلّه، ولم يتعدّه إلى غيره البتّة "[387]. فما يصدر من ممثلي الشريعة الغراء يتوجب ان يكون ملزِماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين – وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته – ما كان يريد ان يمارس لعبة الاستشارات القانونية المزدوجة : يبرز للناس انه لا يقدم على عمل الا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتّ إلى لون الرداء ونسيجه في شيء !!

لقد بلغ العلماء والمشرعون في دولة نور الدين حدّاً جعل الامراء، الذين أنزلوا عن القمة ليحل هؤلاء محلهم، يحسدونهم على مكانتهم " وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم، وإذا نقلوا عن انسان عيباً يقول : ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من تُعدّ ذنوبه "[388]. بلغني – يقول ابن الاثير – " ان بعض الاكابر من الامراء حسد قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي – وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والاحسان إليه – فنال أحدهم منه يوماً عند نور الدين ؛ فقال له : يا هذا، إن صحّ ما تقول فله حسنة تغفر كلّ زلة تذكرها، وهي العلم والدين، واما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ! وأنا أتحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا – أن صحت – مع وجود حسنته ؟ على انني والله لا أصدقك فيما تقول، وان عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينّك ؛ فكف عنه !! "[389].

ولم يكن الرجل يتعامل مع العلماء (بحساب الجملة) كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء.. وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها، ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزّيفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.. ان الرجل يرفض الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة، وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع. وهو – من الجهة الاخرى – يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه : (لست بالخبّ[390] ولا الخبّ يخدعني)..

ومن ثم يبدو ان ليس بمقدور أي رجل ان (يَعْبُر) على بداهة نورالدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثّر بالف رداء علمي وأختبأ خلف الف ستار.. ان الحادثة التي يرويها لنا

شاهد عصره العماد الاصفهاني تحمل دلالتها على علمية الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال : " في رجب – يقول العماد – فوض إليّ نور الدين (إحدى مدارسه) وعوّل علي في التدريس والنظر في أوقافها، وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي (سنة 562 هـ) خلّف ولدين، واستمرا فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيميا[391]، ونهج بهما سبيل الاغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نورالدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من احدهما لأمره سمع المصيخ فقال لي : تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً "[392].

– 2 –

في مقابل هذا الانفتاح على العلماء الجادّين، وهذا التقريب لهم والتقرب إليهم، وفي مقابل ذلك الترحيب بمعطيات العلم وثمار العقل، كان نور الدين – كما يصفه كثير من المؤرخين – : " قليل الابتهاج بالشعر "[393]، لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب ؛ وإنما عن نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل.. ان الشعراء الذين وصفهم كتاب الله بأنهم في كلّ وادٍ يهيمون، وانهم يقولون ما لا يفعلون – واستثنى منهم بطبيعة الحال أولئك الملتزمين الذين يحملون أمانة الكلمة للدفاع عن مواقع الايمان والانتصار على الظلم – سرعان ما يتهافتون على أولئك الذين يدفعون أكثر، والسلطة دائماً هي التي تدفع اكثر، ومن ثم فانهم من اجل ان يحظوا بهذا (الاكثر) يكونون على استعداد دائم لتسخير قدراتهم الابداعية في تبرير كلّ ما يصدر عن السلطة حتى لو كان ظلماً وفسوقاً وطغياناً ؛ ويغدو شعرهم – في كثير من الاحيان – كذباً مستوراً بأردية الفن وألوانه وتزويقاته، على حساب الحقيقة التي يتوجب على العقل البشري الذي يحترم نفسه ان يكشف النقاب عنها، وعلى حساب العدل الذي سيضيع في غمار معادلة قاسية مستهجنة : حشدٌ كبير من الناس يتضوّرون جوعاً في القاعدة، وقلة قليلة تهتز في القمة، لقصيدة مدح تقال فتجعل الاسود ابيض والاحمر اخضر، وتنتهي بدفع صرّة من الذهب إلى (البوق) الذي أطلقها دون ان يكون لهذه الالة المعدنية اية علاقة حقيقية بوجدان الشاعر وفكره واهتماماته.

ونور الدين – كما عرفناه – يكره الكذب والتزوير ويرفض الظلم والتبذير.. انه موقع الايمان الجادّ الذي لا إيمان بدونه : كراهية الكذب، ورفض الظلم، والسعي الدائم – بالمقابل – من اجل استشراف قمم الحق والعدل.. ان نورالدين هنا يذكرنا بعمر بن عبدالعزيز، لا في كراهيته للتجربة الشعرية، ولكن بتوجّسه من ملق الشعراء، وضعفهم ومزايداتهم، ان

ابن عساكر – الشاهد المعاصر الاخر – يبيّن لنا بكلمات حاسمة لماذا قلّ ابتهاج نور الدين بالشعر، وهو لا يسميه شعراً ولكنه يسميه مدحاً، ولهذا دلالته الساخرة في هذا المجال.. انه قليل الابتهاج " لما علم من تزايد الشعراء !! وهي طريقة عمر بن عبد العزيز "[394].

ومن ثم فان نور الدين – كسلفه – لم يكن يشرع الابواب في وجوههم، بل لم يكن يعطيهم !! وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين، فأجاب في احدى مقاماته : " هو سَهم للدولة سديد.. وركن للخلافة شديد.. وأمير زاهد.. وملك مجاهد.. غير انه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الاديب.. (فليس) لشاعر عنده من نعمة تجزى "[395]. وعبارة (غير أنه..) التي ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع.. فهناك دائماً من يريد ان (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة (أعطوه الف دينار..) أو عبارة (سل ما شئت) !! ومن بين هؤلاء الشاعر أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين : صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول : " ما كان – نور الدين – يبذل أموال المسلمين الا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد.. وكان كما قيل في حق عبدالله بن محيريز – وهو من سادات التابعين في الشام – أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبوّن !! واما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به (!!) فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين :

في كلّ عام للبرية ليلةٍ ... فيها تشب النار بالايقاد

لكن لنور الدين من دون العدى ... ناران : نار قرى ونار جهاد !!... الخ

وقد تقدّم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود، ما قليل منه يردّ قول الوهراني وابن منقذ.. وانما الشعراء – واكثر الناس– كما قال الله تعالى في وصف قوم : ﴿ **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾[396]، وما كلّ وقت ينفق العطاء "[397].

ولم يكن أي من الرجلين، عمر أو نور الدين، يكره الشعر لذاته، كأسلوب فني في التعبير.. لقد كانت تجربة عمر بن عبد العزيز قد بلغت من الرقة والشفافية ما جعلها تبلغ وجدانية الشعر بل تتجاوزها إلى مسافات أبعد بكثير.. بل كان في صباه يقول الشعر ويلحنه !! ورجل كهذا لا يمكن بشكل من الاشكال ان يكون في حالة خصام مع الشعر.. اما نور الدين فإن معاصريه أنفسهم يحكون لنا كيف كان يتعشق الشعر.. الشعر الملتزم.. وكيف كان يطلب من بعضهم أحياناً ان يسمعوه، في المواقف والمناسبات، شعراً !!

يقول العماد : سألني نور الدين ان أعمل (مثنويات) شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقلت :

للغـــزو نشـــاطي، وإليـــه طربـــي مـــالي فـــي العـــيش غيـــره مـــن أرب
بالجـــدِ وبالجهـــاد نجـــح الطلـــب والراحـــة مســـتودعة فـــي التعـــبِ

***

لاراحـــة فـــي العـــيش ســـوى أن اغـــزو ســـيفي طربـــاً إلـــى العلـــى يهتـــز
فـــي ذل ذوي الكفـــر يكـــون العـــز والقـــدرة فـــي غيـــر جهـــاد عجـــز

***

أقســـمت ســـوى الجهـــاد مـــا لـــي أربِ والراحـــة فـــي ســـواه عنـــدي تعـــب
الا بالجـــــد لا ينـــــال الطلـــــب والعـــيش بـــلا جـــدّ جهـــاد لعـــب[398]

ويقول في موضع آخر : كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية، فسألني : كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة مطلعها :

عقـــدت بنصـــرك رايـــة الايمـــان وبـــدت لعصـــرك آيـــة الاحســـان... الـــخ

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله ان يشهد عصر نورالدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني[400] والعماد الاصفهاني[401] وابن منير[402] وابن الدهان الموصلي[403].. أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الارضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق ابواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم ان يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا ان لقوا من الرجل إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً.. وليس لنا هنا ان نتحدث عن هؤلاء الشعراء وعن معطياتهم لئلا يخرج بنا ذلك عن الموضوع، ولنا ان نحيل القارئ إلى

دواوينهم نفسها والى كتابَيْ : الخريدة للاصفهاني[404] والدولتين لأبي شامة، ليرى بأم عينه كيف يكون الابداع[405].

– 3 –

في الجهة الاخرى، لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الادبي، والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة، ولكنه تجاوز هذا – على اهميته – إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً ان هذه الفئة الممتازة يجب ان تظل عزيزة الجانب، والا تلجئها الضرورات القاسية إلى ان تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها، أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال، وطيّبة حلوة الثمار التي تنضجها شجرتهم الخضراء..

ان امة تريد من علمائها ان يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة، عليها الا تبخل عليهم بما يسد حاجاتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلّى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم.. هناك حيث وازن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدادهم بدم الشهداء وحيث قدرهم الله حق قدرهم عندما أشار إلى خشيتهم – بالعلم – إياه.. سبحانه.

كان نور الدين إذا أعطى احدا منهم الشيء الكثير يقول : " هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الاعداء، ولهم في بيت المال حق اضعاف ما اعطيهم، فاذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا "[406].. وقال له اصحابه يوما : " ان لك في البلاد إدرارات كثيرة. وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الان لكان أمثل !! فغضب من هذا وقال : والله إني لا ارجو النصر الا بأولئك.. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم في فراشي بسهام لا تخطيء ؛ وأصرفها إلى من لايقاتل عني الا إذا رآني بسهام قد تخطيء وتصيب ؟ ثم ان لهؤلاء القوم نصيباً في بيت المال أصرفه اليهم، فكيف أعطيه غيرهم ؟ "[407].

وقد وسّع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكّن العلماء، بما خصصه لهم من أعطيات، من ان (يتفرغوا) لمهامهم العلمية، وسار في هذا الميدان على الطريق الذي كان سلفه عمر بن عبدالعزيز قد قطع فيه خطوات مديدة.

بنى في كثير من بلاده مكاتب للايتام لتعليهم الخط والقراءة، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة، وبنى – ايضاً – مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرئ بها

القرآن ؛ وهذا فعلٌ – يقول ابن الاثير – لم يسبق إليه "[408]. ووقف وقوفاً اخرى على معلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين[409].

ويحدثنا ابن جبير، الذي زار دمشق بعد سنوات قلائل من وفاة نور الدين، عن جوانب عديدة من نشاطات الدولة في سبيل توسيع خدماتها في حقل التعليم.

ولا ريب ان مشاهداته هذه تنسحب على عصر نور الدين، واضع الاسس الاولى للسياسة التعليمية التي اعتمدها خلفه الناصر صلاح الدين.. ففي الجامع الاموي شاهد ابن جبير حلقات عديدة لتدريس الطلبة، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم أعطيات ومخصصات كبيرة. وفي الجانب الغربي من الجامع أقام نور الدين للمالكية زاوية للتدريس يجتمع إليها طلبة المغرب (المغاربة) ولهم إجراء معلوم من أوقاف كثيرة أوقفها نور الدين على تلك الزاوية بلغت الخمسمائة دينار في العام الواحد. وقد خصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم يأخذ منه المدرس الذي يستند إليها وهو يجتمع بحلقته للمذاكرة والتدريس.. وثمة وقف كبير للايتام من الصبيان يتسلّم منه معلمهم ما يسدّ حاجته وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم " وهذا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد "[410].

وما من مشهد من مشاهد دمشق الا وله أوقاف معينة من بساتين أو اراضٍ أو عمارات " حتى كادت الاوقاف تستغرق جميع ما فيه "، وما ان يتم بناء مدرسة أو مسجد أو رباط حتى يعيّن لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والمقيمين فيها " وهذه ايضاً من المفاخر المخلّدة "[411].

وفي المدرسة الحلاّوية بحلب، التي يصفها ابن شداد بأنها " من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية "[412]، كان نور الدين يقدم في السابع والعشرين من كلّ رمضان طعاماً يجمع عليه المدرّسين.. وورد في شرط الواقف ان يحمل في كلّ شهر رمضان ثلاثة الاف درهم لكبير المدرسين يصنع بها للفقهاء طعاماً، وكان المدرسون يتسلمون مخصصات اخرى تمكنهم من شراء الملابس والدواء والفاكهة، هذا فضلاً عما كان يقدم لهم في المناسبات من طعام ونقود[413].

وتأسّت المرأة بالرجل فراحت تنفق هي الاخرى الاموال الواسعة في بناء المدارس والربط والمساجد وتعين لها من اموالها الاوقاف. بينما راح الامراء يتسابقون في هذا الطريق، كلّ يبني ويعمر ويقف الاوقاف[414]. وليس ثمة غرابة في هذا إذا كانت أوقاف نور الدين الشخصية وحده تدرّ في الشهر الواحد ما يقارب العشرة الاف دينار[415] " ليس فيه ملك غير صحيح شرعاً، ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل اليه وورث ثمنه، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه "[416]. قدر ثمنه بمائتي الف دينار وريعه السنوي بثلاثين الف دينار، كان قد خصص قسم كبير منه على مدارس المذاهب الاربعة وأئمتها ومدرسيها وفقهائها، وعلى تعليم الايتام

وسكنى الغرباء من طلبة العلم[417] " ولو اشتغلت – يقول العماد – بإحصاء وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب ولم ابلغ إلى أمد "[418].

ويختتم ابن جبير حديثه عن هذا الجانب المهم في دمشق فيقول : " ومرافق الغرباء بهذه البلدة اكثر من ان يأخذها الاحصاء، ولا سيما لحفّاظ كتاب الله والمنتمين لطلب (العلم) فالشأن بهذه لهم عجيب جداً. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة اكثر والاتساع اوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة[419]، وهو اكبر الاعوان واهمها "[420].

– 4 –

من اجل ذلك شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً لم تشهد له مثيلاً من قبل الا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الارض، وقصدوا الرجل " من البلاد الشاسعة "[421] حتى ان بلاد الشام كانت، كما يصفها ابو شامة : " خالية من العلم واهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية "[422].

وكانت وجهة (الهجرة العلمية) لصالح دولة نور الدين، حيث غدت حلب أولاً ودمشق فيما بعد، هدف الشيوخ والعلماء والدارسين. فالدولة التي تهيء الارضية الاكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الاكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشيء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين – هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كلّ زمان ومكان. ولقد أدرك نورالدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم اليه ويبالغ في إكرامهم والاحسان اليهم "[423].

استقدم – على سبيل المثال – الفقيه الامام برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاّوية في حلب، لغرض التدريس فيها. وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام 519 هـ وجلس للوعظ، وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الاوقاف الكثيرة، وكثرت الاعطيات فلم يلتفت إليها[424]. وقد قام البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس احمد السلفي – من دمشق ايضاً – ليكون نائباً عنه فيها، فاعتذر عن القدوم فسيّر اليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً، ولم يزل – الاخير – مدرساً هناك إلى ان غادر حلب إلى دمشق،

بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما لبث ان توفي عام (548 هـ). وحلّ محله في التدريس عبدالرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة (564 هـ). ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى، وكان من بينهم الامام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط)، وكان في لسانه لكنة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن ابراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة. واتفق ان ابا بكر بن مسعود الكاساني – الملقب علاء الدين – احد امراء كاسان في اقليم فرغانة من بلاد المشرق، سيّر رسولاً من سلاجقة الاناضول إلى نور الدين فعرض عليه المقام بحلب والتدريس في المدرسة الحلاّوية فأجابه الامير إلى ذلك ووعده بالعودة إلى حلب بعد تسليم جواب رسالته، وقفل عائداً بعد انتهاء مهمته تلك، فـــــــــــــــــــــــــاتفق قدومـــــــــــــــــــــــــــه مع قدوم عالي الغزنوي من الموصل، فما كان من نور الدين – من اجل الافادة من كفاءة الرجلين – الا ان امر بنقل الفقيه الحسين بن محمد بن اسعد المنعوت بالمنجم من مدرسة الحدادين بحلب إلى دمشق وعين عالي الغزنوي مكانه حيث ظل هناك حتى وفاته عام (581 هـ) أو (582 هـ) بينما أقرّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام 587 هـ، أي بعد ثمانية عشر عاماً من وفاة نور الدين. وقد وصفه ابن شداد بأنه " كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سار في الافاق ذكرها "[425]. تفقه في بلاد المشرق على محمد بن احمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه هذا بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاءالدين في علمي الاصول والفروع وصنف كتاب (البدائع) في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[426]. وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه (التحفة) وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً. وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى قولها. وكانت تمارس الافتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها !! وهي التي سنّت تقديم طعام الافطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب.. واستمر ذلك إلى اليوم[427].

وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام (550 هـ) استدعى لها نورالدين من إحدى نواحي سنجار – غربي الموصل – الشيخ الامام شرف الدين ابن ابي عصرون الذي كان – بحق – من أعيان فقهاء عصره. وأراد نور الدين الافادة من كفاءة الرجل إلى المدى الاقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وفوّضه ان يولي التدريس فيها من يشاء. ولم يزل ابن ابي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى ان غادر حلب إلى دمشق سنة (570 هـ)[428].

وفي عام (544 هـ) تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعي للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه [429]. وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ، وقرأ القرآن والادب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالمدرسة النظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام (540 هـ) فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير [430]. ووصفه العماد الاصفهاني بأنه " فقيه عصره ونسيج وحده "[431]. وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة (568 هـ) لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الاموي، وأجتمعت طلبةالعلم عليه. ومن اجل الافادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الاجل أدركه قبل استكمال عمارتها[432]، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين (578هـ).

وعندما أكمل الامير جمال الدين شاذبخت – الخادم الهندي، نائب نور الدين في حلب – بناء المدرسة المعروفة بأسمه (الشاذبختية) استدعى من سنجار نجم الدين مسلم بن سلامة ليوليه تدريسها[433].

وهناك سعيد بن سهل ابو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري المتوفى سنة (560هـ)، والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها، ورحل إلى بغداد مراراً وحدّث بها عن جماعة من الشيوخ. ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي اكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روي عنه المحدث الشهير ابو القاسم بن عساكر [434].

ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف ان نورالدين " كاتبه مراراً "[435]. ويبدو ان الرجل لم يتح له السفر إلى الشام تلبية لرغبة نورالدين بينما أتيح لكثيرين غيره من العلماء. ونحن نستطيع بمجرد إلقاء نظرة على أسمائهم ان نتعرّف على الاقاليم التي جاؤوا منها أو البلدان التي غادروها إلى دولة نور الدين.

وغير أولئك الذين استقدمتهم الدولة كثيرون ممن جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها، وملأوا بنشاطهم العلمي والادبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك، حتى صارت بلاد الشام في عصره – كما يقول ابو شامة – " مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية "[436].

وفي قمة هؤلاء يقف، ولا ريب، المؤرخ الشاعر العماد الاصفهاني الذي سبق وان عرفنا كيف قدم إلى دمشق عام 562 هـ وكيف عرّفه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة بنور الدين محمود فاعتمده الاخير في عديد من المهام الادارية والسياسية والانشائية، فضلاً عن الافادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت – بعدئذ – بالمدرسة العمادية نسبة إليه. وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والادب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نورالدين نفسه : الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي.. ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالا وإبداعاً عن شعر أي من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[437].

وغير العماد تتردد أمامنا أسماء كثيرة أخرى، في حقول المعرفة كافة :

الحسن بن ابي الحسن صافي مولى الارموي البغدادي، ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي.. ولد ببغداد سنة (489 هـ) وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الاساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي (صلى الله عليه وسلم). كان يضم من الذهب يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين. وقد عاش في ظل نور الدين إلى ان مات، وكان يكتب إليه[438].

وابو الفتح بنجه بن ابي الحسن الاشتري الفقيه.. كان معيداً بالنظامية.. سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة ابي شامة في كتابه (الروضتين) [439].

وابو عثمان المنتخب بن ابي محمد البحتري الواسطي الواعظ.. ورد اربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس.. سافر إلى نورالدين في الشام طلباً للجهاد، وأنفذ له الاخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه[440].

ومحمد بن ابي القاسم البلخي.. أمير من أئمة فقهاء بلخ فيما وراء النهر، قدم دمشق عام (552 هـ) ووعظ في جامعها عدة ايام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه، وسرعة جوابه وحدّة خاطره وصفاء حسّه[441].

وعماد الدين ابو بكر النوقاني الشافعي الفقيه.. كان من أكابر علماء الاسلام، من أصحاب محمد بن يحيى النيسابوري الشافعي رئيس الشافعية في أصفهان في عصره. وفد النوقاني إلى الشام في السنة التي افتتح فيها المسجد الجامع في الموصل، فسأله نور الدين ان يكون مدرساً فيه وكتب له منشوراً بذلك[442].

والشريف السيد بهاء الدين ابو الحسن الهادي بن المهدي بن محمد الحسيني الموسوي.. كان فصيح اللسان بالعربية والفارسية، مكين المحل عند نور الدين ناله من الحزن لفقده والتأسف عليه ما تقتضيه مكانته عنده[443].

وشيخ الشيوخ عماد الدين ابو الفتح محمد بن علي بن حمويه.. وفد إلى الشام عام (563 هـ). كان كبير الشأن في ميدان التصوّف، لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ فأقبل عليه نور الدين ورغّبه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[444].

وابن عساكر ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي الحافظ.. من أصحاب الحديث.. لقيه العماد بدمشق وسمع عليه من (تاريخ دمشق) الذي صنّفه. وذكر السمعاني أنه رفيقه. وكان كثير العلم غزير الفضل حافظاً متقناً ثقة ديّناً خيراً، جمع بين معرفة المتون والاسانيد، ورحل في طلب الحديث إلى بغداد وخراسان ثم عاد إلى دمشق.. وتوفي بها (سنة 571 هـ). وكان أول من تولّى مشيخة دار الحديث التي أنشأها نور الدين[445].

وعلي بن سليمان الاندلسي القرطبي.. الذي غادر الاندلس سنة (520 هـ) ورحل إلى بغداد وخراسان وتفقه على الامام محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وجماعة آخرين، كما روى عنه عدد من العلماء المشهورين. قدم إلى دمشق والتقى بابن عساكر وزامله هناك، وحدّث بالصحيحين. ندب للتدريس في حماة ثم انتقل إلى حلب في آواخر سنة (544 هـ)[446].

ومحمد بن علي العظيمي الحلبي المؤرخ.. كانت له عناية بالتاريخ وتأليفه، وكتب عدة مؤلفات وصفها ياقوت بأنها مختلّة كثيرة الخطأ.. وكان يعلم الصبيان في حلب.. مارس كتابة الشعر وسافر إلى دمشق مراراً[447]. وقد أفاد ابن العديم في كتابه (زبدة الحلب) – كما هو معروف – من تاريخ العظيمي إلى حد كبير.

ومجد الدين طاهر بن نصرالله بن جهبل.. كان عالماً زاهداً، فاضلاً في الفقه والحساب والفرائض، سمع الحديث على اكثر من رجل حدّث وصنّف لنورالدين كتاباً في فضل الجهاد.. درّس في حلب بالمدرسة النورية وكان من كبار الفقهاء الشافعية.. توفي سنة (596 هـ)[448].

والوجيه أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل، القاضي التنوخي، المصري الاصل، الفقيه الحنبلي.. ولد سنة (519 هـ) ورحل إلى بغداد وتفقّه بها، وبرع في المذهب، وسمع جماعة من الشيوخ.. وفي دمشق سمع على جماعة اخرى.. ولي قضاء حران في آخر دولة نور الدين، وكان من أبرز الشيوخ الذين تفقه عليهم الشيخ عبد القادر دوست الحسني مؤسس الطريقة القادرية (491– 561 هـ)، وعبدالوهاب بن الشيخ ابي الفرج الشيرازي.. كما روى عنه عدد من الشيوخ ابرزهم ابن قدامة المقدسي المعروف بالشيخ الموفق.. وقد كان لابن المنجا في ذريته عدد من العلماء. وقد توفي سنة (606 هـ). ومن تصانيفه : (الكفاية في شرح الهداية) في بضع عشر مجلداً و (الخلاصة في الفقه) و (العمدة في الفقه) [449].

وفخر الدين رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني الساعاتي.. ولد ونشأ في دمشق، وكان أبوه من خراسان، انتقل إلى الشام وأقام بدمشق إلى ان توفي، وهو الذي عمل الساعات بباب الجامع الاموي ووضعها ايام نور الدين، وكان له منه المنح الكثيرة والراتب الدائم لملازمته الاشراف على تشغيل الساعات وصيانتها. ولما توفي خلّف ولدين : أحدهما بهاء الدين ابو الحسن علي، أحد المشاهير في ميدان الشعر، وثانيهما فخر الدين رضوان، هذا، الذي برع في الطب والادب[450].

وهذا ينقلنا إلى ميدان الطب والمشتغلين فيه، حيث نلتقي بحشد كبير نبغ في الشام أو قدم إليها من أقطار المشرق والمغرب.. الامر الذي يدلنا على ان نور الدين لم يجنح في تبنيّه للحركة الثقافية باتجاه العلوم الشرعية وحدها، وحتى الإنسانية بفروعها المختلفة، بل حاول ان يوجد الارضية الصالحة لنموّ كافة النشاطات العلمية بشقّيها الإنساني والعلمي، النظري والتطبيقي، على السواء.. وانه في موقفه هذا إنما يصدر عن رؤيته الاسلامية التي ترى (العلم) بأبعاده المختلفة وسيلة لخدمة الحياة وترقيتها، وأداة للكشف عن السنن والنواميس التي تدخل في تركيب الكون والطبيعة والإنسان، وصولاً إلى إيمان أشد عمقاً وإدراكاً بخالق السنن والنواميس.. وأحرى بالعلوم المحضة والتطبيقية – والطب من بينها – ان تجد أرضيتها الصالحة في دولة نورالدين مؤسس (البيمارستان) الشهير.. ومن ثم نلتقي بهذا الحشد الكبير من الاطباء، هذه بعض نماذجه :

المهذب ابو الحسن علي بن عيسى النقاش.. من أهل بغداد.. سافر إلى الشام وشاع صيته هناك ولا سيما في علم الطب.. أنفق عليه نور الدين وأقطعه ضيعة وملّكه أخرى تقديراً لفضله وتثميناً لعلمه، واعتمده طبيباً في البيمارستان الكبير.. وما من طبيب في بلاد الشام الا يدعي انه تلميذه.. وقد بلغ من التقدم عند نورالدين ان اعتمده – كذلك – للسفارة إلى الخليفة العباسي في بغداد، ولكتابة الرسائل في ديوان الانشاء. وقد كان لابن النقاش مجلس عام للمشتغلين في الطب[451].

ابو الفضل اسماعيل بن وقار الطبيب.. غادر دمشق إلى بغداد ودرس هناك على علمائها، وقفل عائداً إلى دمشق ليعمل في خدمة نور الدين، وأصبح لا يفارقه سفراً أو حاضراً.. وكان يملك من الخبرة والذكاء ما جعله يتقدم في صنعته ويحقق نجاحاً مشهوداً[452].

محمد بن عبيد الله بن المظفر الباهلي أفضل الدولة ابو المجد.. الذي عدّ من الحكماء المشهورين.. كان طبيباً حاذقاً، له يد طولى في الهندسة والنجوم والموسيقى.. وله في سائر الالات المطربة يد حاذقة، وعمل (أرغناً) وبالغ في إتقانه. قرأ الطب على والده وغيره من الاطباء ولمع نجمه في دولة نورالدين، وما لبث ان أوكل إليه أمر الادارة الطبية في المارستان المشهور الذي أنشأه في دمشق، فأشرف هناك على علاج المرضى وأفاد من مجموعة الكتب

الطبية التي أوقفها نور الدين في المارستان المذكور، وكان يجلس إليه هناك جماعة من الاطباء يستمعون إليه حيناً وينصتون إلى قراءة التلاميذ في الكتب الطبية حيناً آخر، ثم تبدأ بعدها المناقشات والمباحث في مختلف المسائل الطبية، فلا يزال الرجل معهم بين مناقشة ودراسة وقراءة مدة ثلاث ساعات كلّ يوم، يغادر بعدها إلى داره.. وقد توفي الباهلي بعد نور الدين بسنة واحدة[453].

رضي الدين الرحبي، ابو الحجاج يوسف بن حيدرة.. من الاكابر في صناعة الطب، والمشهورين من أهلها لدى الجميع.. كان كبير النفس عالي الهمة، كثير التحقيق، حسن السيرة، محباً للخير وأهله، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى.. كان والده من بلدة الرحبة ومن المشتغلين ايضاً بصناعة الطب.. وكان مولد ابنه هذا في جزيرة ابن عمر حيث نشأ، ثم انتقل إلى نصيبين والرحبة من مدن الجزيرة الفراتية فأقام هناك عدة سنين، ثم سافر إلى بغداد ومصر وغيرهما، واشتغل في ميدان الطب وبرع فيه. وكان وصوله مع ابيه إلى دمشق سنة (555 هـ) حيث أقاما سنين عديدة وتوفي والده هناك فبقي رضي الدين ملازماً للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتباً كثيرة ودرس على مهذّب الدين بن النقاش ولازمه، فقدّمه الاخير ونوّه بذكره. وعندما دخل الناصر صلاح الدين دمشق، بعد وفاة نور الدين، اعتمده في القلعة والبيمارستان طيلة حكمه.. وقد اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ونبغ منهم غير قليل سرعان ما غدوا من المشايخ المذكورين في ميدان الطب وتتلمذ عليهم عدد من الدارسين.. وليس بين جمهور اطباء الشام الا من قرأ على الرحبي أو على احد تلاميذه. وكان من جملة من قرأ عليه، اول أمره، الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي.. وقد توفي رضي الدين سنة (631 هـ) بعد ان عاش نحو المائة سنة خلف ولدين أكبرهما شرف الدين ابو الحسن على والاخر جمال الدين عثمان.. وقد سلكا طريق أبيهما فدرسا الطب وبرعا فيه، وعملا في المارستان الذي أنشأه نور الدين في دمشق[454].

ابو الفضل مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم المهندس.. ولد ونشأ في دمشق، وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها قبل ان يتحلى بمعرفة صناعة الطب. وكان في اول أمره نجاراً ونحاتاً، يكتسب من النجارة وله يد طولى فيها، والناس كثيراً ما يرغبون إلى أعماله، وأكثر ابواب البيمارستان الكبير الذي أنشأه نورالدين من صنع يديه.. وسعى إلى تعلم إقليدس ليزداد في صناعة النجارة جودة ويطلع على دقائقها ويتصرف في أعمالها.. فكان لا يمضي يوم الا وقد حفظ منه شيئاً وحلّ بعض مسائله، بعد فراغه من العمل، وما لبث ان حلّ الكتاب بأسره وفهمه فهماً جيداً وتمكن منه. ثم نظر ايضاً في كتاب (المجسطي) وشرع في قراءته وحلّه وانصرف بكليته إلى صناعة الهندسة وعرف بها، فضلاً عن اشتغاله بصناعة النجوم وعمل الزيجات. وكان قد قدم إلى دمشق يومذاك الشرف الطوسي، وكان فاضلاً في الهندسة

والعلوم الرياضية، ليس في زمانه مثله، فاجتمع به وقرأ عليه وأخذ عنه شيئاً كثيراً من معارفه. وقرأ ايضاً صناعة الطب على ابي المجد محمد بن ابي الحكم، ولازمه حق الملازمة، ونسخ بخطه كتباً كثيرة في حقل الطب. وابو الفضل هذا هو الذي أصلح ساعات الجامع بدمشق وكانت له على مراعاتها وصيانتها أجرة دائمة، فضلاً عن أجرته التي كان يتقاضاها عن عمله في البيمارستان. وقد بقي سنين كثيرة يمارس الطب هناك حتى وفاته.. وكان قد اشتغل ايضاً بالحديث والادب والنحو، ونظم قطعاً جيدة في الشعر. وتوفي سنة (599 هـ) وله من الكتب : (رسالة في معرفة رمز التقويم) (مقالة في رؤية الهلال) (اختصار كتاب الاغاني الكبير للاصفهاني) (كتاب في الحروب والسياسة) (كتاب في الادوية المفردة على ترتيب حروف الابجد) [455].

موفق الدين عبد العزيز بن ابي محمد السلمي.. عرف بشدة شفقته على المرضى وخصوصاً على من كان منهم ضعيف الحال، يفتقدهم ويعالجهم ويوصل اليهم النفقة وما يحتاجونه من الادوية والاغذية. وكان كثير الدين، طلق الوجه، محبوباً من الجميع. وكان في اول أمره فقيهاً في المدرسة الامينية بدمشق واشتغل بعد ذلك على الياس بن المطران في صناعة الطب وأتقن معرفتها، وصار من المتميزين من أربابها، والمشايخ الذين يقتدى بهم فيها. وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب، وقد خدم صناعة الطب في البيمارستان الكبير، ثم خدم بعد ذلك الملك العادل الايوبي، وكانت له عنده منزلة كبيرة، ولم يزل على ذلك حتى وفاته بدمشق عام (604 هـ)[456].

مهذب الدين بن الحاجب.. كان طبيباً مشهوراً متقناً للطب والعلوم الرياضية، وبخاصة الهندسة، معتنياً بالادب والنحو.. ولد في دمشق ونشأ بها واشتغل في صناعة الطب على مهذب الدين بن النقاش ولازمه فترة من الزمن. رحل في طلب العلم إلى الموصل وإربل وعاد إلى دمشق. وكان قبل اشتهاره في ميدان الطب احد المشرفين على صيانة وتشغيل ساعات الجامع الاموي في دمشق، ثم ما لبث ان لمع نجمه في ميدان الطب وصار من جملة رجالاته، وعمل في بيمارستان نور الدين الكبير [457].

وليس ثمة مجال هنا لاستعراض كافة العلماء الذين تألّقوا في دولة نور الدين والتعريف بهم، لئلا يخرج بنا هذا عن وحدة الموضوع.. إنما هي إشارات وشواهد فحسب على تقدم الحركة العلمية، وعلى نجاح سياسة نورالدين في انضاج ثمار الفكر واستقطاب زرّاعها بالبذل والاحترام والتقدير [458].

– 5 –

ومن خلال (المدرسة) كمؤسسة تعليمية، انطلق نور الدين في تحقيق برامجه الواسعة ومطامحه التي لم يوقفها الا الموت.. لقد اراد ان تنتشر المدارس في كلّ مكان من انحاء دولته الشاسعة، مترامية الاطراف.. انها المراكز التي تنقل حشود الناس من ظلام الامية والجهل إلى نور المعرفة واليقين.. وان الرجل ليعرف جيداً انه بالجهل والامية لن تتحقق امته بالايمان، ولن تتمكن من تحقيق ما أسميناه بتأصيل الذات العقائدية بمواجهة الغزو الخارجي المتشعّب والتحريف الداخلي المدمّر. والعلماء الذين استقدمهم أو جاؤوه من كلّ مكان، ما كان لهم ان يعملوا ارتجالا أو ينشطوا في الفراغ.. ونحن نعرف مدى الروح التنظيمية التي يملكها رجل كنورالدين.. فلابدّ من تواجد قدر كاف من المؤسسات التعليمية للافادة من كفاءة هؤلاء الرجال، ولنشر نور العلم والمعرفة وفق نظام دقيق وبرنامج مرسوم.

وهكذا، فمن خلال الرغبة الجادة في تنظيم عملية التعلّم لتحقيق الاصالة العقائدية في مجابهة الاسلام للغزو الخارجي والتحريف الداخلي ؛ نستطيع ان نعثر على مفتاح ذلك النشاط المدرسي الذي تبناه السلاجقة من قبل وأعقبهم نور الدين وكل الذين ساروا على خطاه، وبخاصة خلفه الناصر صلاح الدين، فأصبح هذا النشاط (سمة) من أبرز سمات العصر : عصر التوحيد والمقاومة والجهاد الذي أريد له، منذ أول لحظة، ان يكون حركة مسلّحة مبطنة بنورالبرهان وقوة الكلمة..

ومن ثم نجد الرجل ينشط، منذ لحظة تسلّمه الحكم وحتى وفاته، لإقامة أكبر قدر (ممكن) من معاهد العلم : مدارس ومكاتب ودور حديث وربطاً[459]، وانفاق المبالغ الطائلة في هذا السبيل، ووقف الوقوف السخية لضمان استمرار هذه المؤسسات على اداء مهمتها. وشهدت مدن دولته وحواضرها، وبخاصة حلب ودمشق، جهداً مستمراً لبناء المدارس ابتداء، أو توسيع وإصلاح ما كان قد بني قبلاً.. ولم يقف الرجل وحده في هذا المضمار بل وقف من ورائه جل رجالات دولته وكثير من نسائها ايضاً.. وأصبح تقليداً شائعاً ان يسعى هذا الرجل أو تلك المرأة إلى التقرب إلى الله وتخليد الذكرى بهذه المأثرة : بناء مدرسة ؛ كان يعدّ ولا ريب عملاً من أخلص أعمال الايمان. " وقد كان سبيل الناس إلى العلم قبل ذلك هو التفرغ له وملازمة الشيوخ، فكان لا يستطيع ذلك الا من كانت له مواهب حقيقية ظاهرة يشعر معها ان هذه الدراسة ستجعل منه شيئاً، أو من كانت لديه موارد مالية كافية تغنيه عن طلب العيش وتمكنه من التفرغ للدرس، فكان طلب العلم – على هذا – لوناً من الارستقراطية الذهنية أو المالية، ولهذا فقد كان الناس اما ان يكونوا علماء أو جهلاء، اما من نسميهم نحن بالمتعلمين فلم يكن لهم وجود تقريباً، فلما انتشرت المدارس كثروا حتى اصبحوا يكوّنون جزءاً هاماً من الطبقة الوسط، بل الجزء الاقوى منها، وكان لهذا كله أثره في رفع المستوى الاجتماعي العام "[460].

في حلب – على سبيل المثال – جدّد نور الدين إحدى الكنائس التي كان المسلمون قد استولوا عليها بسبب تحديات الصليبيين المعروفة عام (518 هـ) ، وصيّرها مسجداً ومدرسة للحنفية عرفت بالحلاّوية، وجدّد فيها مساكن يأوي إليها الفقهاء، وايواناً. وكان بدء العمارة سنة (544 هـ) ، وقد جلب لها من (أفامية) القريبة من حلب مذبحاً من الرخام الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ عما وراءه، ووضعه فيها[461]. كما حوّل داراً كانت لابي الحسن علي – وزير بني مرداس – فصيّرها – بعد انتقالها اليه بالوجه الشرعي – مدرسة للشافعية، وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وذلك في سنة 550 هـ[462]. وبنى مدرسة اخرى عام (544 هـ) هي المدرسة النفرية النورية الشافعية[463]. كما جدّد مسجد الغضائري وجعله مدرسة وعيّن له مدرساً على المذهب الشافعي ووقف عليه وقفاً[464]. ووقف في جامع حلب الكبير، المسمى بالجامع الاعظم، زاويتين لتدريس مذهبي مالك واحمد، وزاوية ثالثة لتدريس الحديث، وإنما اغفل المذهبين الاخرين، الحنفي والشافعي لانهما كانا يدرسان في الجامع المذكور قبل نور الدين[465].

وقام بعض رجالاته في حلب ببناء عدد من المدارس أشهرها ولا ريب المدرسة الشاذبختية الي أنشأها جمال الدين شاذبخت، الخادم الهندي عتيق نور الدين، وخصصها لتدريس المذهب الحنفي[466]. كما أنشأ الرجل ذاته مدرسة أخرى بنفس الاسم شمالي حلب [467]. وأنشأ أسد الدين شيركوه مدرسة بأسمه خصصت لتدريس المذهب الشافعي [468]. وقام مجد الدين بن الداية ببناء دار الحديث ومدرستين حملتا اسمه (المجدية) إحداهما داخل حلب والاخرى ظاهرها[469]. وبنى طومان بن ملاعب بن عبدالله الانصاري – صاحب الرقة، وأحد أمراء نور الدين الكبار – مدرسة للحنفية عرفت باسمه[470]. وثمة أمير آخر من العائلة الايوبية هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ابن اخت صلاح الدين، أنشأ مدرسة باسم (الحدادية) [471]. وقامت زوجة نور الدين، عصمت خاتون، ببناء دار للحديث ألحقها بالخانقاه التي بنتها في حلب[472].

وفي دمشق أنشأ نور الدين عدداً من المدارس أشهرها المدرسة النورية (الصغرى) للشافعية عام 563 هـ[473]، ومدرسة جامع القلعة[474]، والمدرسة العمادية التي اشتهرت باسم العماد الاصفهاني[475]، والمدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري، وقد نسبت خطأ إلى صلاح الدين[476]، ومدرسة الكلاسة شمالي الجامع الاموي[477]. كما بنى داراً للحديث هي الاولى من نوعها في دمشق، أوقف عليها وقوفاً كثيرة[478]. وفي عام 568 هـ شرع نور الدين بانشاء مدرسة كبيرة (مركزية) للشافعية، لكنه توفي قبل إتمامها، فأتمها بعده الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين فسميت بالمدرسة العادلية أو (النورية الكبرى) [479]. تمييزا لها عن النورية الصغرى. وقد قام ولده الملك الصالح اسماعيل بنقل رفاته إليها حيث دفن هناك[480].

وقد وصفها ابن جبير – بعد سنوات قلائل – فقال أنها : " من أحسن مدارس الدنيا وانها قصر من القصور الانيقة، ينصبّ فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يتدفق الماء في ساقية مستطيلة إلى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر "[481].

وقام رجالاته بإنشاء عدد آخر من المدارس كالمدرسة الريحانية المجاورة للمدرسة النورية، والتي أنشأها جمال الدين ريحان، والي القلعة وخادم نورالدين، سنة (565 هـ) وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[482]، والمدرستين اللتين أنشاهما الامير مجاهدالدين بزان بن مامين قبل سنة (555 هـ) حيث توفي[483]. وقامت عصمت خاتون، زوجة نور الدين، ببناء مدرسة لاصحاب ابي حنيفة عرفت بالمدرسة الخاتونية، أو مدرسة خاتون[484]. وفي الزيارة التي قام بها ابن جبير لدمشق بعد وفاة نور الدين بعشر سنوات يحدثنا انه شاهد فيها نحو عشرين مدرسة [485]. وأغلب الظن ان معظم هذه المدارس مما تم إنشاؤه خلال الحركة المدرسية التي شهدها عصر نور الدين[486].

ومدارس أخرى للمذاهب المختلفة، بنيت في حمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة والرها ونصيبين[487]. ليس هذا فحسب، بل ان نورالدين كان يسعى إلى أقامة مدارسه حتى في تلك البلاد التي لا تخضع لحكمه، وكان ينتهز الفرص لتحقيق خططه في هذا المجال.. فهو عندما دخل الموصل عام (566 هـ) ، لإقرار الامور فيها، أشار على صديقه الشيخ الزاهد عمر الملاّء بابتياع خربة واسعة وسط البلدة وإقامة جامع كبير فيها تقام فيه الجمع والجماعات، وتدرّس المذاهب المختلفة، وولى الرجل نفسه امر الاشراف عليه، فأنفق اموالا كثيرة قيل انها بلغت ستين الف دينار، وقيل ثلاثمائة الف، وتم انجاز البناء في أقل من ثلاث سنوات، وقدم نور الدين لكي يفتتحه بنفسه ويصلّي فيه، وخصص قرية من قرى الموصل لكي تكون وقفاً عليه[488]. وهو عندما بعث قاضي قضاته كمال الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة العباسي المستضيء في بغداد عام (568 هـ) في مهمة سياسية ؛ طلب منه ان يذكّر الخليفة بذلك الاقطاع الذي كانت الخلافة العباسية قد كافأت به أباه زنكي متمثلاً بناحيتي درب هارون وصريفين من أعمال العراق الجنوبي، فاستجاب الخليفة لطلبه، وكان هدفه من وراء ذلك ان يلتمس ارضاً ببغداد على شاطيء دجلة ويبني فيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين المذكورتين، لكنه توفي قبل البدء بمشروعه هذا[489].

***

ولم يكن نور الدين – كما رأينا في بدء هذا الفصل – متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب لكي يسعى – من خلال نشاطه المدرسي هذا – إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون

مذهب، والى تعزيز مواقع (فقهٍ) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتيبّس الفكري.. انه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير : العمل على مستوى العقيدة الاسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة، وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبدع واجتهاد خلاّق.. ان الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى ان يكون الصراع الفكري، لا قتالا وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للامة المسلمة، لكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الارض الاسلامية، ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الاسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه.. وصراع من جهة اخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الاسلامي نفسه، وهذا هو الاخطر والاهم.. ومن ثم فان قيادة الفكر الاسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة، يجب ان تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدى..

وثمة حادثة – من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون – تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال ؛ في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كلّ يريد مذهباً من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين " فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج اليهم نائبه – مجد الدين بن الداية – وقال لهم على لسانه : نحن ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق " ثم أعلمهم ان نورالدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كلّ منهما احدى المدارس الشهيرة في حلب[490].

لقد حقق نور الدين التجاوز الصعب، وتمكن من مدّ بصره صوب الاشمل والابعد فبنى المدارس لكل المذاهب[491]، وحقق الاجواء الصالحة لكل الاتجاهات التي تعمل في اطار الفكر الاسلامي الاصيل، وتعامل مع كلّ العلماء أياً كان المذهب الذي ينتمون اليه، وصادق رجالا من أهل السنة والجماعة ومن الشيعة على السواء.. بل انه تعمد – كما يبدو – ان تشهد دولته مزيداً من التنوع الفكري، والا تجمد مؤسساتها على نمط واحد.. فمن خلال التنوع والتغاير تتحقق الحركة، وتتأصل الشخصية، ويتدفق الابداع..

***

قائمة بأهم المصادر

ابن الاثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630 هـ)

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبدالقادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (1963 م).

الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، (1966 م).

ابن ابي اصيبعة : موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجي (ت 668 هـ)

عيون الانباء في طبقات الاطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (1965 م).

التطيلي : بنيامين بن يونه النباري الاندلسي (ت 561–569 هـ)

رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة وتعليق عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، (1945 م).

ابن جبير : محمد بن احمد الكناني الاندلسي (ت 614 هـ)

رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، (1964 م).

ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن علي (ت 597 هـ)

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، (1358 هـ).

ابن خلكان : شمس الدين احمد بن محمد (ت 681 هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، دار بيروت، (1968 م).

سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف قزاوغلي (ت 654 هـ)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، (1951 م).

ابو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت 665 هـ)

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (1962 م).

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت 684 هـ)

الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة :
قسم دمشق، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، (1956 م).
قسم حلب، تحقيق سوردیل، المعهد الفرنسي، دمشق، (1953 م).

الطباخ : محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب، (1925 م).

ابن طولون : شمس الدين (ت 953 هـ)
قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام)، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، (1956 م).

ابن العديم : كمال الدين ابو القاسم عمر بن هبة الله (ت 660 هـ)
زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، (1954 م).

العماد الاصفهاني : محمد بن حامد (ت 597 هـ)
سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي، اختصره قوام الدين الفتح بن علي البغدادي (ت 642 هـ)، القسم الاول، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، (1971 م).

ابن قاضي شهبة : بدرالدين (ت 874 هـ)
الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، (1971 م).

ابن القلانسي : ابو يعلى حمزة (ت 555 هـ)
ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (1908م).

ابن كثير : عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ)
البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، (1932 م).

ابن منقذ : ابو مظفر اسامة الكناني الشيزري (ت 584 هـ)

الاعتبـار، تحقيـق فيليـب حتـي، مطبعـة جامعـة برنسـتون، الولايـات المتحـدة، (1930 م) ، (تصوير مكتبة المثنى، بغداد).

النعيمي : عبدالقادر بن محمد الدمشقي (ت 927 هـ)

الـدارس فـي انبـاء المـدارس، تحقيـق جعفـر الحسـيني، مطبوعـات المجمـع العلمـي العربي، دمشق، (1948–1951م).

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت 697 هـ)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات ادارة إحياء التراث القديم، مطبعة جامعة فؤاد الاول، القاهرة، (1953 م).

Elisseeff : Nikita

Nur Ad - din : Grand prince musulman De Syrie An Temps Des Croisades.

Institut Francais De Damas 1967.

الهوامش

(1) ينظر كتاب : (عصر ولاة السلاجقة في الموصل) للمؤلف.

(2) ينظر كتاب : (الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام) للمؤلف.

(3) انظر كتاب (عماد الدين زنكي) للمؤلف.

(4) الباهر ، ص86-87، الكامل 114/11 وانظر ما فعله بحصن العزيمة (الباهر ص90 والكامل 131/11-132).

(5) ابن الأثير : الباهر ، ص154-155، الكامل 373/11-374، ابو شامة : الروضتين 1 / 516-517.

(6) الباهر ، ص102، الكامل 154/11-155، سبط ابن الجوزي : مرآة 202/9، ابن العديم زبدة 301/2-302.

(7) الباهر ، ص103، الكامل 155/11.

(8) الباهر ، ص169 وانظر الكامل 387/11-388.

(9) الباهر ، ص107-108، الكامل 197/11-198، ابن العديم : زبدة 303/2-305.

(10) ويعني حكامها من آل طغتكين.

(11) ابن منقذ : الاعتبار ، ص14.

(12) الروضتين 1/ 422.

(13) الكامل 11/ 322.

(14) ابن الأثير : الباهر ، ص87-88، سبط : مرآة 192/8 وهامش 1 نفس الصفحة.

(15) الباهر 164.

(16) ابن القلانسي : دمشق ، ص308-309.

(17) ابن القلانسي ، ص310.

(18) نفسه 315-316.

(19) الروضتين 1/ 544.

(20) الباهر ، ص 107.

(21) نفسه ، ص153-154، الكامل 11/ 362-364، ابو شامة : الروضتين 475/1-477، ابن العديم، زبدة 2 / 332-33.

(22) ابن الأثير : الباهر ، ص 110، 112، الكامل 11/ 218، ابن العديم : زبدة 306/2-308، ابن القلانسي : دمشق ص335-336، ابن الجوزي : المنتظم 176/10-177، سبط : مرآة 8 / 228-229.

(23) الباهر ، ص 45، الكامل 11/ 354، ابو شامة : الروضتين 1/ 467-468، ابن الجوزي : المنتظم 230/10.

(24) ابو شامة : الروضتين 1/ 480.

(25) البرق ، ص144 وانظر : سبط : مرآة 247/8-248، 270، 280، 306، ابن كثير : البداية 278/12، 281، ابو شامة : الروضتين 1/ 10/1، 41-44، ابن كثير : 395/11، ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب)

17، 21، 24، 32، 39، 40، 49، 93، 144 (قسم دمشق) 36، 38، 76، 103–104، 112، 114، 125، 126، 136، 146، 151، 159، 192.

إليسيف : نور الدين ، ص751–779.

(26) العماد : البرق ، ص145.

(27) ابن كثير : البداية 283/12.

(28) ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ، ص110–111.

(29) نفسه : (قسم دمشق) ، ص38.

(30) ابن شداد : الأعلاق (قسم حلب) ، ص24.

(31) مرآة 8 / 306.

(32) نفسه 8 / 306.

(33) البرق ، ص125–126.

(34) ابن الأثير : الباهر ، ص159، الكامل 11/ 375، سبط : مرآة 285/8–286، ابو شامة : الروضتين 1/ 520.

(35) انظر إليسيف : نور الدين ، ص783–785.

(36) رحلة ، ص255، 261.

(37) الباهر ، ص141.

(38) نفسه ، ص 172 – 173.

(39) نفسه ، ص173.

(40) البداية 12 / 278.

(41) الباهر ، ص172–173.

(42) انظر مثلا تفاصيل دخوله الموصل عام 566 هـ حيث يذكر ابن الاثير " ان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي كان مع نور الدين، لحسن سيرته وعدله " (الباهر ص 153 – 154). وانظر الكامل (11/ 332 – 333).

(43) ابن الاثير : البداية 12 / 223.

(44) ابن القلانسي : دمشق ، ص 308 – 309.

(45) نفسه ، ص 310.

(46) نفسه ، ص 308 – 309.

(47) رجال الشرطة المكلفون باخماد الفتن وعقاب مثيري الشغب، او هم رجال الحرس الاقليمي في العصور الوسطى (ابو شامة : الروضتين 85/1/1 هامش 4).

(48) سبط : مرآة 8 / 209 – 210.

(49) ابن كثير : البداية 12 / 231.

(50) ابن العديم : زبدة 2 / 304 – 305.

(51) ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 239.

(52) القلانسي : دمشق ، ص 340.

(53) الباهر ، ص 123، الكامل 11 / 302، ابن العديم : زبدة 2 / 318 – 319 ابو شامة : الروضتين 1 / 340 ، سبط : مرآة 8 / 246 – 247.

(54) ابن الاثير : الباهر ص 133، الكامل 11 / 325، ابو شامة : الروضتين 1 / 365.

(55) نحو ثلاث وثلاثين سنة.

(56) الباهر ، ص 69.

(57) نفسه ، ص 117 – 118، الكامل 11 / 294 – 295، سبط : مراة 8 / 224.

(58) مرآة 8 / 307.

(59) ابن الاثير : الباهر ، ص 130 – 131، الكامل 11 / 304 ، سبط : مرآة 8 / 252.

(60) الباهر ، ص 123، ابن العديم : زبدة 2 / 318 – 319، سبط مراة 8 / 246 – 247.

(61) الباهر ، ص 169، الكامل 11 / 404.

(62) الباهر ، ص 168.

(63) العماد : البرق هامش 2 ، ص 70.

(64) نفسه 70، ابو شامة : الروضتين 1 / 382.

(65) كلمة فارسية معناها : المحجن او العصا او الصولجان الذي تضرب به الكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم (الكرة والصولجة) والتي تعرف الان باسم البولو. وكانت الجوكان عصا مدهونة طولها نحوا من اربعة اذرع وبراسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد نص الذراع (ابن واصل : بني ايوب هامش 1 جزء 1 ، ص 267 وانظر المقريزي : السلوك هامش 1 جزء 1 ، ص 435).

(66) الباهر ، ص 168 – 169.

(67) اي مالت الى الراحة.

(68) الباهر ، ص 164 – 165.

(69) الاعتبار ، ص 197 – 198 وانظر : سبط : مرآة 8 / 313.

(70) المصدران السابقان.

(71) المصدران السابقان.

(72) القبق، لفظ تركي معناه لغة نبات القرعة العسلية ومعناه اصطلاحا الهدف الذي كان يستعمل في اللعبة التي عرفت في الشرق بالعصور الوسطى بنفس الاسم وكانت طريقة لعب القبق – كما وصفها دوزي في معجمه – ان ينصب صار طويل من خشب يكون في راسه شكل قرعة من ذهب او فضة بمثابة الهدف، ويكون في القرعة طير حمام، ثم ياتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب او السهام وهم على ظهور الخيل، فمن اصاب منهم القرعة واطار الحمام جاز السباق واخذ القرعة المعدنية لنفسه. غير ان المقريزي (الخطط 3 / 180) وصف هذه اللعبة وصفا يختلف عن الوصف السابق بعض الشيء، ويبدو ان وصفه هو الذي تعنيه الرواية هنا، فالقبق عنده عبارة عن " خشبة عالية جدا تنصب في براح من الارض ويعمل باعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من خلالها الى غرض هناك تمرينا لهم على احكام الرمي " (ابن واصل بني ايوب هامش 8 جزء 1 ، ص 260 – 261). والتفسير الاخير اقرب الى فكرة نور الدين عن الممارسة الرياضية.

(73) انظر البرق ، ص 150 – 154 ، ابا شامة : الروضتين 1 / 597 – 580.

(74) الروضتين : 1 / 582 – 583.

(75) ابن واصل : بني ايوب 1 / 283.

(76) ابن الاثير : الباهر ، ص 171 – 173، ابن الجوزي : المنتظم 10 / 249.

(77) الباهر ، ص 171 – 173، ابن واصل : بني ايوب 1 / 283.

(78) الباهر ، ص 165.

(79) الروضتين 1 / 582 – 583، ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 56 – 57، الباهر 165 – 166.

(80) سبط : مرآة 8 / 313.

(81) نفسه 8 / 306 – 307، الروضتين 1 / 1 / 10 – 11.

(82) انظر (ملامح الانقلاب) و (دراسة في السيرة) و (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف

(83) الباهر ، ص 166.

(84) قيمة القرطاس الواحد مائة وخمسون درهما : ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 53 – 54.

(85) البرق ، ص 143 – 144 وانظر ابن واصل : بني ايوب 1 / 281 والكواكب ، ص 53 – 54.

(86) الباهر ، ص 164 وانظر الكواكب ، ص 53 – 54.

(87) الباهر ، ص 165.

(88) نفسه ، ص 164، الكامل 11 / 403.

(89) البداية 12 / 278.

(90) نفسه 12 / 282.

(91) مرآة 8 / 315.

(92) نفسه 8 / 320.

(93) العماد : البرق ، ص 153 – 154، ابو شامة : الروضتين 1 / 581 – 582، ابن الاثير : الباهر ، ص 161 – 162، الكامل 11 / 402 – 403.

(94) ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 68 – 69.

(95) سبط : مرآة 8 / 322 – 323.

(96) الروضتين 1 / 342 – 343.

(97) ابن الاثير : الباهر ، ص 169، الكامل 11 / 404.

(98) البرق ، ص 126.

(99) ابن الاثير : الباهر ، ص 153 – 154.

(100) الروضتين 1 / 1 / 34.

(101) نفسه 1 / 459.

(102) الباهر ، ص 164.

(103) الكواكب ، ص 54.

(104) نفسه ، ص 54.

(105) ابن الاثير : الباهر ، ص 165.

(106) ابو شامة : الروضتين 1 / 597 – 580.

(107) ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 15، سبط : مرآة 8 / 305، بن خلكان : وفيات 5 / 184.

(108) ابن الاثير : الباهر ، ص 162، الكامل 11 / 403، ابو شامة : الروضتين 1 / 582، ابن كثير : البداية 12 / 284، ابن خلكان : وفيات 5 / 188 ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 15، سبط : مراة 8 / 305.

(109) ابن القلانسي : دمشق ، ص 288 – 289.

(110) النعيمي : الدارس 1 / 613.

(111) ابن كثير : البداية 12 / 279.

(112) النعيمي : 1 / 508 – 509.

(113) ابن الاثير : الباهر ، ص 182.

(114) هي الذبحة الصدرية كما يسميها الطب الحديث (ابن العديم : زبدة هامش 4 جزء 2 ، ص 340).

(115) ابن العديم : زبدة، العماد : البرق ، ص 150 – 153، ابو شامة : الروضتين 1 / 579 – 580.

(116) الباهر ، ص 161 – 162، الكامل 11 / 402 – 403، ابو شامة 1 / 582.

(117) العماد : البرق ، ص 153 – 154 ، ابو شامة 1 / 583.

(118) انظر ابن العسقلاني : دمشق ، ص 336 وابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص 25 والعماد الاصفهاني: البرق ، ص 120 – 122، 146 – 147 وابا شامة : الروضتين 1 / 582 – 583 وابن واصل : بني ايوب 1 / 269.

(119) البرق ، ص 120 – 121.

(120) Elisseeff : Nur Ad - din , pp 785 - 786

(121) ابو شامة : الروضتين 1 / 119 – 120.

(122) انظر فصل، نظم الموصل الادارية في عهد زنكي من كتاب (عماد الدين زنكي للمؤلف ، ص 194 – 195، 245 – 246).

(123) انظر ابن القلانسي : دمشق ، ص 285 وسبط ابن الجوزي 8 / 191.

(124) زبدة الحلب 2 / 289 – 290.

(125) ان الاثير : الباهر ، ص 97.

(126) ابو شامة الروضتين 1 / 1 / 124 وانظر ابن العديم : زبدة الحلب 2 / 302.

(127) عن ابي شامة : الروضتين 1 / 593.

(128) نفسه 1 / 1 / 276.

(129) مرآة 8 / 324 – 325.

(130) انظر ابن العديم : زبدة الحلب 2 / 2 / 302 وسبط ابن الجوزي : مرآة 8 / 280 – 281 وابن الاثير: الكامل، 11 / 359.

(131) سبط : مرآة 8 / 281.

(132) نفسه 8 / 281.

(133) ابن الاثير : الكامل 11 / 359.

(134) نفسه 11 / 407 الباهر ، ص 163، ابن العديم : زبدة 3 / 10 – 11.

(135) سبط : مرآة 8 / 281.

(136) ابن الاثير : الباهر ، ص 163 ابن العديم ، زبدة 3 / 10 – 11.

(137) ابو شامة : الروضتين 1 / 595.

(138) وانظر شهادة العماد الاصفهاني في البرق ، ص 120 – 122، 131 – 132.

(139) ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 124 .

(140) الروضتين 1 / 1 / 239.

(141) المصدر نفسه.

(142) الروضتين 1 / 1 / 250 – 251.

(143) نفسه 1 / 1 / 210.

(144) نفسه 1 / 1 / 251 – 252.

(145) الباهر ، ص120.

(146) الكامل 11 / 342.

(147) دوزي : معجم 1 / 750 عن العماد الأصفهاني : البرق ، ص 120 هامش رقم –2–.

(148) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم (البرق ، ص122 هامش رقم –1–).

(149) العماد الأصفهاني : البرق، ص120 – 122.

(150) انظر العماد الأصفهاني : البرق ، المقدمة ، ص10 – 11، 36، 120 – 122، ابو شامة : الروضتين 1 / 377 – 378، 524.

(151) البرق ، ص131 – 132.

(152) البرق ، ص132 – 133.

(153) نفسه ، ص116.

(154) قسم شعراء الشام ، ص125.

(155) ابن واصل : بنو ايوب 1 / 270.

(156) أبو شامة : الروضتين 1 / 458 سبط : مرآة 8 / 280.

(157) مرآة 8 / 281.

(158) دمشق ، ص345 أما سبط فيجعل وفاته عام 556هـ (مرآة 8 / 239 – 240).

(159) ابن القلانسي : دمشق ، ص336.

(160) وهم : عبد الله بن احمد الحمدي المعروف بابن النقار الذي عمل كاتبا لنور الدين وكان يتميز بقدرته على الكتابة ونظم الشعر (سبط : مرآة 8 / 289) والشيخ ولي الدين اسماعيل الذي تولى خزانة بيت المال (العماد : البرق ، ص75) وضياء الدين بكريسان : الأمير الحاجب مفتش العروض العسكرية الذي كان يعد من أكابر الأمراء واعتمده نور الدين في كثير من الأمور (نفسه ، ص122) وجمال الدين ريحان الذي وصف بأنه من اكبر الخدم (ابو شامة : الروضتين 1 / 586) وهمام الدين مودود الذي كان – هو الآخر – من كبار الأمراء وتولى حلب في بدء عهد نور الدين (نفسه 1 / 579 – 580) وأبو شمام المحالي : ضامن دار الزكاة (ابن واصل : بنو أيوب 1 / 269) وابو اليسر شاكر بن عبد الله المعري الذي تولى كتابة الانشاء قبل العماد الأصفهاني، فلما استعفى وقعد في بيته تولى العماد كتابة الانشاء بعده (الطباخ : تاريخ حلب 4 / 273) والأمير جمال الدين شاذبخت : الخادم الهندي عتيق نور الدين كان نائبا عن نور الدين في حلب وهو الذي بنى المدرسة المعروفة بأسمه هناك (ابن العديم : زبدة 3 / 9، ابو شامة : الروضتين 1 / 595) وشهاب الدين ابو صالح العجمي : ناظر الديوان (العماد : البرق

ص131) وشمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم الذي تولى أتابكية الملك الصالح ابن نور الدين (ابن كثير : البداية 12 / 285) ويبدو أنه تولى هذه المهمة بعد تعيين الأتابك السابق سعد الدين كمشتكين نائبا لنور الدين في قلعة الموصل عام 566هـ (انظر : أبا شامة : الروضتين 1 / 587 والعماد : البرق ، ص99) وابو نصر : الحاجب (نفسه ، ص146 – 147) وابو محمد الحكم : المشرف على رئاسة حلب (ابن العديم : زبدة 13 / 18). وأمين الدين زين الحاج ابو القسم : متولي الديوان (ابن القلانسي : دمشق ، ص55) وعز الدين جورديك المملوك : متولي ولاية القلعة (نفسه) ورضي الدين ابو غالب بن أسد التميمي : رئيس دمشق (ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 41 – 42) ونظام الدين بن ابي المضاء : متولي الوزارة بدمشق (نفسه) والمنتخب ابو سالم بن عبد الرحمن الحلبي : متولي كتابة الجيش وعرض الأخبار في ديوان نور الدين (ابن القلانسي : دمشق ، ص353 – 354) وأبو الفتح عمر بن حموي شيخ الشيوخ الذي فوضه نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف في عدد من المدن الشامية (سبط: مرآة 8 / 272) ويبدو ان ذلك تم قبل منح صلاحية الاشراف على أوقاف المملكة لقاضي القضاة كمال الدين الشهروزي. أو لعله كان يعمل وغيره تحت إمرة الشهروزي كمشرف عام.

(161) من بين هذا الحشد من الأمراء تبرز أسماء غرس الدين قلج، شرف الدين بزغش، عين الدولة الياروقي، سيف الدين المشطوب الهكاري، شهاب الدين محمود الحارمي، الفقيه عيسى الهكاري، حسام الدين بن عيسى الجراحي، فخر الدين بن الزعفراني، أسامة بن منقذ الشاعر المؤرخ المعروف.

(162) ابن الأثير : الباهر 136 – 137، ابن العديم : زبدة 2 / 325، ابو شامة : الروضتين 1 / 386 – 387، 593.

(163) ابو شامة : الروضتين 1 / 593.

(164) نفسه : 1 / 593، 595.

(165) نفسه : 1 / 383، 441.

(166) العماد : البرق ، ص70 – 71.

(167) ابو شامة : الروضتين 149/1/1 هامش رقم –7–. وقد اشتهر الرجل بأوقافه الكثيرة على أبواب البر منها المدرستان المنسوبتان اليه في دمشق (ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 309). ويصفه ابن القلانسي بأنه كان وجيها في الدولة موصوفا بالشجاعة والسماحة، مواظبا على الصلاة وعلى بث الصدقات في المساكين والفقراء مع الزمان (دمشق ، ص359).

(168) ابو شامة : الروضتين 1 / 458 ابن شداد : الاعلاق ، ص42 النعيمي : الدارس 2 / 259.

(169) العماد : البرق ، ص92.

(170) ابن الأثير : الكامل 11 / 199.

(171) الكامل 11 / 329، الباهر ، ص134–135، ابن العديم : زبدة 2 / 324 – 325.

(172) ابن منقذ : الاعتبار ، ص198 هامش رقم (35).

(173) النعيمي : الدارس 1 / 542 – 543.

(174) ابن الأثير : الباهر ، ص136 – 137، ابن العديم : زبدة 2 / 325، ابو شامة : الروضتين 1 / 386 – 387.

(175) ابن الأثير : الكامل 11 / 407.

(176) نفسه.

(177) العماد : البرق ، ص99.

(178) L' Egypte Arabe, P. 230.

(179) صبح الأعشى 4 / 5.

(180) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 5.

(181) سبق وان حللنا بالتفصيل كافة الوظائف والادارات المشار اليها آنفا في كتابين سابقين ؛ أولهما (عماد الدين زنكي) (الفصلان التاسع والعاشر) وثانيهما (الامارات الارتقية في الجزيرة والشام) (الفصل الأخير).

(182) صبح الأعشى 5 / 453.

(183) المقريزي : خطط 2 / 215، السبكي : معيد النعم ، ص34.

(184) القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 17.

(185) نفسه 4 / 16، المقريزي : خطط 2 / 214.

(186) المقريزي : خطط 2 / 215.

(187) نفسه.

(188) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ، ص215.

(189) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، ص234 – 235 وانظر الامارات الارتقية 304 – 305.

(190) انظر : Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 778-790.

(191) Ibid. - pp. 786 - 787.

(192) زبدة، كشف الممالك ، ص93 – 95.

(193) صبح الأعشى 4 / 38.

(194) انظر : عماد الدين زنكي (للمؤلف) ، ص256 – 261.

(195) ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص298، علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ، ص213، عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ، ص306.

(196) حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومر، مجلد 20، سنة 1964، الامارات الارتقية ، ص307 – 308.

(197) حسين أمين : المرجع السابق، الامارات الأرتقية ، ص306 – 308.

(198) القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 19، وانظر المقريزي خطط 2 / 219، عماد الدين زنكي ، ص191 – 195.

(199) Elisseef : Nur Ad-din. Pp. 787 - 788, وانظر السبكي : معيد النعم ، ص30 – 31..

(200) صبح الأعشى : 11 / 92.

(201) عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ، ص304، عماد الدين زنكي ، ص246 – 249.

(202) انظر عماد الدين زنكي ، ص249.

(203) حسين مؤنس : نور الدين محمود ، ص384 – 385 وانظر عن (الاقطاع) في هذا العصر بالتفصيل الصفحات 212 – 225 من كتاب (عماد الدين زنكي) و Lambton : Landlord and Peasant in persia, (London 1953).

(204) انظر Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 781-783.

(205) Ibid .

(206) القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 60.

(207) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ، ص230.

(208) الامارات الارتقية ، ص310.

(209) القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 22 – 23، العمري التعريف بالمصطلح الشريف ، ص94 – 96، 148 – 149، علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ، ص231، الامارات الارتقية ، ص306.

(210) حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومر مجلد 20 سنة 1964، وانظر الامارات الارتقية ، ص310 – 311. Elisseeff : Nur Ad-din, p. 833.

(211) C. Cahen : Mouvements Populaires, pp. 11 - 16.
Elisseeff : op. Cit, pp. 830-832.
السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية 1 / 24 – 25، الامارات الارتقية ، ص309 – 310.

(212) ابن خلكان : وفيات الأعيان 1 / 316.

(213) القلقشندي : صبح الأعشى 4 / 18، عماد الدين زنكي ، ص226 هامش رقم (176).
Gibb : Damascus Chronicle. Pp. 23 - 27.
Encyclopeadia of Islam, ed. 2, art : Atabak (by cl. Cahen).

(214) انظر القلقشندي : صبح الأعشى (طبعة 2) 7 / 267 – 269، 8 / 225، 229 الامارات الارتقية، ص308 – 309.

(215) ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص25.

(216) نفسه ، ص70.

(217) نفسه ، ص25.

(218) الباهر ، ص166.

(219) ابن الأثير : الباهر ، ص168.

(220) انظر : أبا شامة : الروضتين 1 / 1 / 33.

(221) نفسه.

(222) نفسه وانظر ابن الأثير : الباهر ، ص168، وابن كثير : البداية 12 / 280 و
Elisseeff : Nur Ad-din, pp. 843 - 847.

(223) ابن الأثير : الكامل 11/ 44.

(224) ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص25.

(225) حوالي سنة 577هـ (1180م)، أي بعد أقل من مرور عقد على وفاة نور الدين وجد فيها الرحالة اليهودي الآخر المدعو (فتاحية) عشرة آلاف يهودي : رحلة 76م عن التطيلي رحلة، ص117 هامش رقم –1–.

(226) اللفظة آرامية تعني المجلس : رحلة ، ص177 هامش رقم –2–.

(227) كان بيت المقدس مقر المثيبة حتى الغزوة الصليبية الأولى وعندها لجأ علماؤها اليهود إلى (حدرخ) على مقربة من دمشق، ومنها انتقلت إلى العاصمة نفسها. وفي هذه المرحلة أصبحت مثيبة دمشق في منطقة نفوذ رأس مثيبة بغداد. المصدر السابق ، ص117 هامش رقم –3–.

(228) المصدر السابق ، ص117، 122.

(229) حسين مؤنس : نور الدين ، ص367 – 368.

(230) سورة النور، آية 51.

(231) ابو شامة : الروضتين : 1 / 1 / 36 – 37.

(232) ابن الأثير : الباهر ، ص166 – 167.

(233) نفسه ، ص167.

(234) ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 34.

(235) نفسه 1 / 1 / 16.

(236) ابن الأثير : الباهر ، ص167.

(237) الباهر ، ص153 – 154.

(238) الروضتين 1 / 1 / 41 – 44 (يجد القارئ هناك النص الكامل للوثيقة).

(239) دمشق ، ص359 – 360.

(240) ابن طولون : قضاة دمشق ، ص47 – 48.

(241) زبدة 2 / 312.

(242) البرق ، ص222.

(243) نفسه ، ص146 – 147.

(244) العماد : الخريدة قسم الشام ، ص246 هامش رقم –4– وقد أخطأ ابن طولون في تفسير هذه العبارة فظن ان نور الدين قد استوزره (قضاة دمشق ، ص47 – 48).

(245) العماد : البرق ، ص222 – 224.

(246) نفسه.

(247) العماد : البرق ، ص146 – 147.

(248) ابن كثير : البداية 12 / 278.

(249) ابن الأثير : الكامل 11 / 395.

(250) عن ابي شامة : الروضتين 1 / 470.

(251) نفسه 1 / 470، ابن طولون : قضاة دمشق ، ص47 – 48.

(252) العماد : البرق ، ص97.

(253) نفسه ، ص100.

(254) ابن خلكان : وفيات 3 / 53 – 56، ابن طولون : قضاة دمشق 49 – 51، النعيمي : الدارس 1 / 399 – 402.

(255) سبط : مرآة 8 / 283.

(256) وانظر الفصل الأخير من هذا الكتاب للاطلاع على عدد آخر من القضاة الذين اعتمدهم نور الدين.

(257) ابن الأثير : الباهر ، ص173 – 174، ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص32 – 33.

(258) ابن الأثير : الباهر ، ص166.

(259) العماد : البرق ، ص146 – 147.

(260) ابن قاضي شهبة : الكواكب ، ص25.

(261) ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 36 – 37.

(262) الباهر ، ص166.

(263) نفسه ، ص165–166.

(264) الروضتين : 1 / 1 / 34.

(265) نفسه : 1 / 1 / 10 – 11.

(266) البداية : 12 / 278.

(267) الكواكب ، ص25، 32 – 33.

(268) انظر : سبط : مرآة 8 / 247 – 248، أبا شامة : الروضتين 1 / 480، ابن الأثير : الباهر ، ص164.

(269) ابن العديم : زبدة 2 / 315.

(270) ابن الأثير : الباهر ، ص143، 161 – 162، 164، ابو شامة : الروضتين 1 / 1 / 10، ابن العديم: زبدة 2 / 315.

(271) الكواكب ، ص40 – 41.

(272) نفسه.

(273) مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977.

(274) الدار العلمية، بيروت، 1970.

(275) حسين مؤنس، نور الدين محمود ، ص402.

(276) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب، حسين مؤنس، نور الدين ، ص 374.

(277) ابن القلانسي، دمشق ، ص 328 –329، سبط، مرآة 223/8، 306، ابو شامة، الروضتين 10/1/1، ابن كثير، البداية 278/12.

(278) أي المواد العينية على ما يبدو.

(279) ابو شامة ، الروضتين، 38/1/1–41.

(280) يبدو ان الاسقاط السابق عام 549 خفّض مقدار الاسقاط التالي الذي يصفه المنشور بانه رسم سنوي كان يسميه الدمشقيون القشّة، وكانوا يرغمون على دفعه رغم سوء احوالهم.

(281) ربما يكون المقصود بهم المضارب العربية في منطقة الفرات.

(282) ابو شامة، الروضتين، 41/38/1/1، وانظر ابن العديم، زبدة ، 308/2.

(283) ابن القلانسي، دمشق، ص352–353.

(284) ابن العديم، زبدة، 325/2.

(285) ابو شامة، الروضتين، 479/1–480.

(286) انظر ابن الاثير، الباهر، ص153–154، الكامل 364/11، العماد، البرق، ص97.

(287) الروضتين، 455/1–456.

(288) الباهر، ص166.

(289) انظر نصّ المنشور في الروضتين، 522/1–523.

(290) الروضتين، 433/1 وفي عيون الروضتين 234– وهو مخطوط بالمتحف البريطاني – تفصيل لبعض هذه المكوس الملغاة نقلاً عن ابن ابي طي، هامش1، جزء1، ص 522.

(291) زبدة، 334/2.

(292) هنالك اختلاف مع رواية ابن العديم بملبغ عشرة دنانير فقط، ولعلها من خطأ الناسخين او المؤرخ نفسه في احصاء المبالغ المذكورة.

(293) يعلق محقق كتاب ابن واصل على ذلك بقوله : حبذا لو كان معين الدين هذا قد اورد تفاصيل المكوس التي الغيت، ولم يكتف بالجمل، فانه كان يقدم للباحثين وثيقة من اندر واقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الضرائب في الشام قبل عصر نورالدين، بني ايوب هامش 1، 279/1.

(294) بني ايوب، 271/1–279.

(295) الروضتين، 550/1–551 وانظر، العماد، البرق، ص143.

(296) البرق، ص143.

(297) الباهر، ص166.

(298) الروضتين، 37/1/1–38.

(299) ابو شامة، الروضتين، 38/1/1،28، ابن قاضي شبهة، الكواكب، ص43.

(300) ص 167.

(301) ابن القلانسي، دمشق، ص336.

(302) العماد، البرق، ص132–133.

(203) ابن قاضي شهبة، الكواكب، ص24.

(304) زبدة، 307/2.

(305) ابن قاضي شهبة، الكواكب، ص70–71.

(306) ابو شامة، الروضتين 80/1.

(307) انظر ابن الاثير، الكامل 3/11.

(308) ابن واصل ، بني ايوب 19/1.

(309) ابن الاثير، الباهر، ص168.

(310) سبط، مرآة 232/8.

(311) البداية، 278/12.

(312) ابن كثير، البداية 281/12، ابن الاثير، الباهر، ص172–173.

(313) الباهر، ص118، الكامل، 296/11، ابن العديم، زبدة، 314/2، ابن خلكان، وفيات، 187/5–188، سبط، مرآة، 244/8–245.

(314) ابن العديم، زبدة، 315/2.

(315) ابن القلانسي، دمشق، ص310.

(316) نفسه، ص308–309.

(317) نفسه، ص309.

(318) سبط، مرآة، 223/8، ابن العديم، زبدة، 304/2–305.

(319) ابن القلانسي، دمشق، ص327–329.

(320) ابو شامة ، الروضتين، 33/1/1.

(321) ابن الاثير، الباهر، ص175–176.

(322) ابن الاثير، الكامل، 407/11.

(323) نفسه.

(324) ابن العديم، زبدة، 9/3.

(325) ابن كثير، البداية، 282/12.

(326) الروضتين، 34/1/1.

(327) العماد، البرق، ص56.

(328) سبط، مرآة، 306/8، ابو شامة، الروضين، 10/1/1.

(329) ابن كثير، البداية، 278/12، ابن قاضي شبهة، الكواكب، ص 17.

(330) ابن الاثير، الباهر، ص171.

(331) نفسه، ص170.

(332) رحلة، ص255–256.

(333) البداية، 281/12، وانظر ابا شامة، الروضتين، 21/1/1.

(334) الباهر، ص170–171.

(335) طبقات الاطباء، ص628.

(336) انظر الفصل الرابع من هذا البحث.

(337) بني ايوب، 283/1.

(338) ابن الشحنة، حلب، ص230–231 وعن المارستانات النورية انظر كذلك :
Elisseeff : Nur Ad-din"pp.838-842.

(339) رحلة، ص256.

(340) نفسه، ص233.

(341) نفسه، ص249.

(342) نفسه، ص261، وأنظر ابن شداد، الاعلاق (قسم دمشق)، ص38.

(343) ابن جبير، رحلة، ص250.

(344) انظر ابن شداد، الاعلاق (قسم حلب)، ص292–299.

(345) انظر المصدر السابق، ص144.

(346) ابن الاثير، الكامل، 364/11، الباهر، ص 170، سبط، مرآة، 282/8، 293، 310–311، ابن الجوزي، المنتظم، 249/10، ابو شامة، الروضتين، 480/1، العماد، البرق، ص98.

(347) البرق، ص144.

(348) الباهر، ص172.

(349) انظر عن مسألة الاوقاف، وعن المجالس الشورية التي كانت تعقد اتنظيمها وتثبيتها ابا شامة، الروضتين، 141/1–42.

(350) الروضتين، 38/1/1–41.

(351) سبط، مرآة، 299/8، أبو شامة، الروضتين، 556/1، ابن قاضي شهبة، الكواكب، ص223، ابن العديم، زبدة، 340/2، العماد، البرق، ص143.

(352) البرق، ص143.

(353) ابن جبير، رحلة، ص280.

(354) ابو شامة، الروضتين، 36/1/1.

(355) النعيمي، الدارس، 451/1.

(356) لاحظ ان الذين اقطعوا هنا هم الاجناد وليس القادة أو الامراء أو الكبار !!

(357) ابن الاثير، الباهر ، ص169، وعن خدمات الدولة في حقل التعليم انظر الفصل الرابع.

(358) ابن جبير، رحلة، ص259.

(359) نفسه، ص 258.

(360) البرق، ص147 واضافة للارقام التي ثبتناها لدى الحديث عن الخدمات الاجتماعية لدولة نور الدين فاننا نضيف هنا حشداً آخر من الارقام والبيانات يتعلق بالمسائل الحربية بالدرجة الاولى ويشير إلى مدى تمكن ميزانية الدولة. فالعماد يشير إلى ان نور الدين امر خازن بيت المال عام 564 هـ بصرف مائتي الف دينار معجلة لأسد الدين شيركوه لدى توجهه إلى مصر، واطلق لكل فارس عشرين ديناراً. ولما كان عدد هؤلاء الفي فارس، فمعنى هذا انه صرف لهم اربعين الف دينار (البرق، ص 75–) وكان هذا المبلغ – كما يقول ابن الاثير – معونة لكل فارس على الطريق، غير محسوبة من المخصصات الثابتة له، هذا فضلاً عما وزع على المقاتلين يوم ذاك " من الثياب والدواب والالات والاسلحة وغير ذلك " (الباهر، ص 139 / الكامل، 338/11، أو شامة : الروضتين، 392/1–393). وكان قد امر رجال الديوان باحضار كلّ جندي فقد منه شيء في الحرب وتعويضه عما فقد (ابن الاثير، الباهر، ص117–118، سبط : مرآة 244/8–245). وكان يثبت اسم كلّ امير في ديوانه وما منحه من سلاح ودواب خوفا من قيام بعض الامراء بتجميد بعض ما هو مقرّر عليه من العدد. وكان يقول : " نحن كلّ وقت بصدد النفير، فاذا لم يكن اجناد كافة الامراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام، (الباهر، ص169). وكان من عادته انه إذا اقطع اميراً اقطاعاً ما قرر عليه عدداً من المقاتلين لا ينقصون في خيل وسلاح وعدد فاذا نقص وارد الاقطاع عن تغطية نفقات الجند عوضه نقداً من خزانته (البرق، ص122). وفي عام 563 هـ عرض على صاحب قلعة جعبر مبلغ عشرين الف دينار، فضلاً عن عدد من المواقع، لقاء تنازله عن القلعة (الباهر، ص136–137، الكامل 334/13–335، الروضتين، 386/1–387، زبدة، 325/2) . ومن ثم فان الرواية التي يوردها سبط (مرآة 244/8–245) من ان بعض موظفي نورالدين عرضوا عليه سنة 558 ايقاف نفقاته على الفقهاء والفقراء... أو الاقتراض من ارباب الاموال للاستعداد لجهاد العدو بسبب من نفاد الخزائن لا يمثل سوى حالة عابرة لم تدم اكثر من اشهر معدودات، عانت فيها خزانة الدولة – على ما يبدو – العجز الذي الجأ الموظفين إلى التماس الحلول لتغطيته، وربما تكون الانتصارات التالية والغنائم التي ترتبت عليها، وبخاصة انتصار (حارم) في العام التالي (559 هـ) قد اعاد لمالية الدولة موازنتها وقدرتها على العطاء كما تتبين من خلال الروايات السالفة. وربما تكون الرواية اساساً مبالغاً فيها لتصوير حالة التحرّز التي كانت تنتاب نور الدين كلما عرض عليه ان يقلّص نفقاته على الفقراء أو يلزم الاغنياء ما يخرج عما هو مفروض عليهم. ومهما يكن من امر فان نور الدين – كما يرد في الرواية نفسها – رفض الاخذ باقتراحات رجاله ولهذا دلالته في مجال كهذا.

(361) انظر العماد : البرق، ص143.

(362) عن هذه الضرائب الثلاث : الخراج " الجزية، الزكاة انظر بالتفصيل :
Elisseeff : Nur Ad-din"pp"794-805.

(363) دمشق، ص308-309.

(364) زبدة، 341/2.

(365) مرآة، 247/8-2487، ابن كثير : البداية، 281/12 ، وانظر ابا شامة : الروضتين، 555/1-556.

(366) المنتظم، 249/10.

(367) الروضتين، 611/1.

(368) انظر المصدر السابق، 525/1 والعماد : البرق، ص123-124.

(369) الكامل، 141/11، زبدة، 298/2.

(370) ابن الاثير، الباهر ، ص98.

(371) الدولة العربية وسقوطها، ص296 (ترجمة عبد الهادي ابي زبدة).

(372) حسين مؤنس : نور الدين، ص374.

(373) زبدة، 341/2.

(374) نفسه، الطباخ، تاريخ حلب، 70/2.

(375) رحلة بنيامين، ص 115.

(376) رحلة، ص 261.

(377) ابن الاثير، الباهر، ص165، النعيمي، الدارس، 609/1.

(378) ابو شامة، الروضتين، 582/1-583، ابن قاضي شهبة، الكواكب، ص56-57، سبط، مرآة، 306/8-307، ابن الاثير، الباهر، ص165-166.

(379) سبط، مرآة، 313/8.

(380) نفسه، 306/8-307، ابو شامة، الروضتين، 10/1/1-11، ابن كثير، البداية، 278/12.

(381) ابو شامة، الروضتين، 582/1-583.

(382) ابن واصل، بني ايوب، 283/2.

(383) ابن الاثير، الباهر، ص 171-173، وانظر ابن الجوزي، المنتظم، 249/10، وابن كثير، البداية، 281/12.

(384) انظر، ابن واصل، بني ايوب، 283/1، وبين الاثير، الباهر، ص 171-173.

(385) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(386) الباهر، ص 173.

(387) نفسه، ص 164.

(388) نفسه، ص 171-172.

(389) نفسه.

(390) أي مخادع

(391) يوم كانت (الكيميا) دجلاً وشعودة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين!!

(392) البرق، ص 119-120.

(393) ابو شامة، الروضتين، 58/1/1، 582/1–583.

(394) نفسه، 584/1.

(395) ابو شامة، الروضتين، 584/1.

(396) سورة التوبة، الاية (58).

(397) ابو شامة، الروضتين، 584/1–585.

(398) ابو شامة، الروضتين، 528/1.

(399) نفسه، 528/1–529، وانظر 543/1.

(400) محمد بن نصر الله العكاوي ويقال له ابن الصغير. ولد بعكا سنة 478 هـ، ونشأ بقيسارية الساحل فلذلك نسب إليها. ولما استولى الصليبيون على الساحل انتقل إلى حلب ومنها إلى دمشق فأخذ الادب عن توفيق بن محمد (ت516 هـ). وكان القيسراني أديباً فاضلاً، شاعراً مترسلاً، بليغ النظر، مليح المعاني، وله اطلاع واسع في علم النجوم والاحكام والتاريخ، توفي سنة 547 هـ (سبط : مرآة 213/8–214، وانظر الطباخ : تاريخ حلب 237/4–239).

(401) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(402) احمد بن منير الشاعر الطرابلسي، ولد سنة 473 هـ بناحية طرابلس وكان ابوه منير ينشد الاشعار ويتغنى بها في اسواق طرابلس، ونشأ ابنه فحفظ القرآن وقرأ الادب والعربية واللغة وقدم إلى دمشق فأقام بها. وكان حينئذ خبيث اللسان كثير الفخر بشعره ويستعمل الالفاظ العامية فيه، فلما كثر منه ذلك حبسه بوري ابن طغتكين حاكم دمشق، ثم هرب إلى حلب، وجاء مع نور الدين عندما حاصر دمشق، ثم قفل عائداً إلى حلب ومات فيها سنة 548 هـ. وكان شاعراً مجيداً هجاءً، معارضاً لمحمد بن القيسراني الشاعر(سبط : مرآة 217/8–218 وانظر الطباخ : تاريخ حلب 231/4–237).

(403) عبيدالله بن اسعد المعروف بابن الدهان الموصلي، فقيه فاضل وشاعر مبدع، كان مدرساً بحمص. ذكره العماد في خريدته فأكثر الثناء عليه وعلى شعره (ابو شامة : الروضتين، 322/1/1).

(404) قسم شعراء الشام، جزء1–2، تحقيق، " شكري فيصل ".

(405) وانظر كذلك، بدوي، الحياة العقلية.

(406) ابن كثير، البداية، 281/12، ابن الاثير، الباهر، ص 173.

(407) ابن الاثير، الباهر، ص 118، الكامل، 296/11، ابن العديم، زبدة، 314/2، ابن خلكان، وفيات، 187/5–188.

(408) الباهر، ص 172، ابن كثير، البداية 278/12.

(409) ابو شامة، الروضتين، 10/1/1، ابن كثير، البداية 12/ 278.

(410) رحلة بان جبير، ص 245،257.

(411) نفسه، ص 248.

(412) أي مخصصات.

(413) الاعلاق، الخطيرة، قسم حلب 110–111.

(414) ابن جبير، رحلة، ص 248.

(415) اعتماداً على رواية ابن الاثير التي يقول فيها نقلاً عن احد العارفين باعمال الشام " ان وقوف نور الدين في وقتنا هذا – سنة 608 هـ – كلّ شهر تسعة الاف دينار "، الباهر، ص 172.

(416) ابن الاثير، الباهر، ص 172.

(417) ابو شامة، الروضتين، 38/1/1 –41، وانظر ابن كثير، البداية، 263/12، والعماد، البرق، ص 98.

(418) البرق، ص 144.

(419) وهو ما يسمى اليوم بالتفرغ العلمي وانظر، ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز، فصل (التربية والتثقيف).

(420) رحلة ابن جبير، ص 258.

(421) ابن الاثير، الباهر، ص 171–172

(422) الروضتين، 34/1/1.

(423) ابن العديم، زبدة، 293/2–294، ابن واصل، بني ايوب 283/1.

(424) سبط، مرآة 219/8–220.

(425) الاعلاق الخطيرة، قسم حلب، ص 110–112، 114–115، ابن العديم، زبدة، 293/2–295.

(426) الطباخ، تاريخ حلب، 305/4–308.

(427) نفسه، 273/4–274.

(428) ابن شداد، الاعلاق، قسم حلب، ص 98–99، ابن العديم، زبدة، 3–293–294.

(429) ابن العديم، زبدة 2–293–294، وانظر مخطوطة كنوز الذهب، ورقة 65 ظ، عن المصدر السابق، هامش 4، 294/2.

(430) ابن شداد، الاعلاق، قسم حلب، ص 100–101.

(431) البرق، ص 134–135.

(432) نفسه، ابو شامة، الروضتين، 544/1–545، سبط، مرآة، 294/8.

(433) ابن شداد، الاعلاق، قسم حلب، ص 113.

(434) النعيمي، الدارس، 153/2.

(435) المنتظم، 249/10.

(436) الروضتين، 34/1/1.

(437) لمزيد من التفاصيل عن حياة العماد وانتاجه انظر مقدمة كتاب (سنا البرق الشامي) الذي حققه وقدم له رمضان ششن، وانظر كذلك، النعيمي الدارس، 408/1 –411.

(438) سبط، مرآة، 295/8–297.

(439) ابو شامة، الروضتين، 33/1/1.

(440) نفسه، 28/1/1.

(441) ابن القلانسي، دمشق، ص 347–348.

(442) العماد، البرق، ص 98، ابو شامة، الروضتين، 480/1.

(443) ابن القلانسي، دمشق، ص 333–334.

(444) العماد، البرق، ص 135، ابو شامة، الروضتين، 545/1 – 546.

(445) انظر، العماد، الخريدة، قسم الشام، 274/1 – 276، والنعيمي، الدارس، 100/1–101.

(446) الطباخ، تاريخ حلب، 230/4.

(447) نفسه ، 248/4.

(448) نفسه، 4/313-316.

(449) النعيمي، الدارس، 2/114-115.

(450) ابن ابي اصيبعة، طبقات الاطباء، ص 661-662.

(451) ابن ابي اصيبعة، طبقات الاطباء، ص 635-637، العماد، البرق، ص 142.

(452) ابن ابي اصبيعة، طبقات الاطباء، ص 635، ابن القلانسي، دمشق، ص357، الطباخ، تاريخ حلب، 4/247.

(453) ابن ابي اصيبعة، طبقات الاطباء، ص 628، وانظر الفصل الثالث من هذا البحث.

(454) ابن ابي اصيبعة، طبقات الاطباء، ص 672-676، 682.

(455) ابن ابي اصبيعة، ص 669 - 671.

(456) نفسه، ص 671.

(457) نفسه، ص 659. وانظر بالتفصيل عن الاطباء الذين تواجدوا في دمشق أو تقاطروا إليها في عصر نور الدين، أو قريب منه، مدفوعين بنشاطها الواسع في ميدان الطب، وبوجود عدد كبير من الاطباء البارزين فيها، وبإغراء مؤسستها الشهيرة : البيمارستان النوري الكبير، وانظر الاسماء التالية التي يوردها ابن ابي اصيبعة في اماكن متفرقة من كتابه والتي يدلنا بعضها على الجهات النائية التي قدم منها هؤلاء الاطباء : ابو جعفر عمر بن علي بن البندخ المغربي (ص628-630)، حكيم الزمان عبدالمنعم الجلياني الاندلسي (ص630-635)، ابو زكريا يحيى البياسي الاندلسي (ص637)، سكرة اليهودي الحلبي (ص637-638)، عفيف بن سكرة اليهودي (ص638)، موفق الدين بن المطران (ص651-659)، برهان الدين الشريف الكحّال (ص660)، ابو منصور النصراني (ص661)، ابو النجم بن ابي غالب النصراني (ص661)، ابو الفرج النصراني (ص661)، كمال الدين الحمصي (ص682-683)، موفق الدين عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب (الافادة والاعتبار) (ص683-696). ابو الحجاج يوسف الاسرائيلي (ص696-697)، اوحد الدين عمران الاسرائيلي (ص697)، مهذب الدين يوسف بن ابي سعيد (ص721-723)، مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (ص728-736)، شمس الدين محمد الكلي المغربي (ص755).

(458) يمكن ان نشير هنا - مجرد إشارة - إلى عدد اخر من الاسماء يستطيع القارئ ان يتعرف عليها بالرجوع إلى كتب التراجم التي تعنى بهذه الفترة، والى قائمة المصادر التي اعتمدت في هذا البحث : ابو البيان الزاهد المعروف بابن الحوراني ت 551 هـ (انظر سبط : مرآة 8/227-228)، عبد الكريم بن عبد الله بن الفضل التنوخي المصري ت 556 هـ (سبط 8/239)، يوسف بن مكي ابو الحجاج الحارثي الشافعي ت 556 هـ (سبط 8/240)، حسان بن تميم بن نصر الدمشقي المعروف بالصوفي ت 560 هـ (سبط 8/253)، عبدالواحد بن ابراهيم المعروف بابن قرة الحلبي ت 560 هـ (سبط 8/253)، ابراهيم بن احمد بن ابراهيم ت 561 هـ (سبط 8/263)، عبدالله بن الحسين الانصاري المعروف بابن رواحة 561 هـ (سبط 8/263)، عبد الرحمن بن الحسين ابو طالب الحلبي المعروف بابن العجمي ت 561 هـ (سبط 8/263-264)، عبد الكريم بن محمد ابو الفضل الانصاري ت 561 هـ (سبط 8/266-267)، الخضر بن شبل ابو البركات المعروف بابن عبد ت 562 هـ (سبط 8/270-271)، هبة الله الحسن الدمشقي اخو الحافظ ابن عساكر ت 563 هـ (سبط 8/273-274)، هبة الله بن محفوظ بن صصري ت 563 هـ (سبط 8/274)، يوسف بن عبدالله بن البندار الدمشقي ت 563 هـ (سبط 8/274)، علي بن عبدالله بن ابي جرادة العقيلي ت 546 هـ (الطباخ تاريخ حلب 4/230-231)، محمد بن عبدالصمد الطرطوسي ت 549 هـ (الطباخ 4/239)، محمد

بن علي بن حميدة ت 550 هـ (الطباخ 243/4)، الحسن بن علي بن العديم ت 551 هـ (الطباخ 244/4)، فتيان ابو السخاء الحائك النحوي ت 560 هـ (الطباخ 249/4)، الحسين بن محمد المعروف بالنجم توفي في العقد السابع ظناً (الطباخ 264/4–265)، محمد بن احمد السمرقندي توفي في العقد الثامن ظناً (الطباخ 265/4)، هاشم بن احمد الاسدي ت 577 هـ (الطباخ 267/4–268)، اسامة بن منقذ الكناني، المؤرخ الأديب المعروف ت 584 هـ (الطباخ 276/4–278)، الشريف حمزه بن زهرة الاسحاقي الحسيني ت 585 هـ (الطباخ 285/4–286)، الامير الفقيه عيسى الهكاري ت 585 هـ (الطباخ 289/4–290)، محمد بن علي المازندراني الشيعي ت 588 هـ (الطباخ 308/4–309)، الشيخ شعيب الاندلسي ت 596 هـ (الطباخ 316/4).. وغير هؤلاء ممن وردت اسماء بعضهم في صفحات هذا البحث، ومن الشعراء والادباء الذين يمكن ان يتعرف القارئ عليهم في كتاب العماد الاصفهاني الشهير (الخريدة)..

(459) انظر، العماد، البرق، ص56، 144، ابو شامة، الروضتين، 34/1/1، ابن الاثير، الباهر، ص170، 172، ابن خلكان، وفيات، 185/5، ابن العديم، زبدة، 293/2–295، ابن واصل، بني ايوب، 282/1، 284، وانظر بالتفصيل إليسيف، نور الدين، ص 751–754.

(460) حسين مؤنس، نور الدين، ص372–373.

(461) ابن شداد، الاعلاق (قسم حلب)، ص 110–111، ابن العديم، زبدة، 293/2، وهو يشير إلى ان عملية البناء بدأت عام 543 وليس الذي يليه.

(462) ابن شداد، الاعلاق (قسم حلب)، ص، 98–99، ابن العديم، زبدة، 293/2–294، ابن واصل، بني ايوب 282/1.

(463) ابن شداد،، حلب، ص 100، ابن العديم، زبدة،، هامش 4، 294/2، عن مخطوطة باسم (كنز الذهب)، ورقة 65.

(464) ابن شداد، حلب، ص44، ابن العديم، زبدة 294/2.

(465) ابن شداد، حلب، ص121–122، الطباخ ، تاريخ حلب، 82/2.

(466) ابن شداد، حلب، ص113، ابن العديم، زبدة 9/3.

(467) الطباخ، تاريخ حلب، 319/4.

(468) نفسه، 259/4.

(469) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص120، 123.

(470) النعيمي، الدارس، 542/1–543.

(471) ابن شداد، حلب، 114–115.

(472) نفسه، ص 122، وعن مدارس حلب عموماً في عصر نور الدين، انظر، أليسيف، نور الدين، ص915–918. (الملحق الثالث).

(473) ابن شداد، الاعلاق (قسم دمشق)، ص203، النعيمي، الدارس، 648/1.

(474) ابن شداد، دمشق، ص218.

(475) النعيمي، الدارس، 183/1.

(476) ابن شداد، دمشق، ص245، النعيمي، الدارس، 331/1.

(477) النعيمي، الدارس، 447/1.

(478) ابن شداد، دمشق، ص123، ابن واصل، بني ايوب ن 284/1، وانظر، النعيمي، الدارس 99/1–101.

(479) ابـو شـامة، الروضـتين، 544/1–545، سـبط، مـرآة 294/8، العمـاد، البـرق، 134–135، ابـن شـداد، دمشق، ص240، ابن واصل، بني ايوب، 282/1، النعيمي، الدارس، 359/1، 361.

(480) ابن واصل، بني ايوب، 282/1، وهوامشها، النعيمي، الدارس، 607/1، سبط، مرآة 294/8.

(481) رحلة، ص256.

(482) ابن شداد، دمشق، ص209، وهوامشها، النعيمي، الدارس، 522/1–523.

(483) ابو شامة، الروضتين، 309/1/1، النعيمي، الدارس، 452/1.

(484) سبط، مرآة 385/8، ابن شداد، دمشق، ص205، النعيمي، الدارس، 507/1.

(485) رحلة، ص256.

(486) عن مدارس دمشق – عموما – في عصر نور الدين، انظر، إليسيف، نور الدين، ص919–930 (الملحق الرابع).

(487) ابـن شـداد، حلـب، ص98–99، ابـن خلكـان، وفيـات 53/3–56، 185/5، ابـن واصـل، بنـي ايـوب 282/1، ابن الاثير، الباهر، ص170، ابن طولون، قضاة دمشق، ص47–48 (الملحق السادس)
Elisseef : Nur -Ad- din,pp.933-935.

(488) سبط، مرآة 310/8–311، ابو شامة، الروضتين، 480/1، العماد، البرق، ص 98، ابن كثير، البداية، 263/12.

(489) العماد، البرق، ص139، ابن الاثير، الكامل، 395/11.

(490) الطباخ، تاريخ حلب، 68/2.

(491) فضلاً عما سبق يمكن الرجوع إلى الجدولين (1و2) اللذين ثبتهما Elisseeff : في كتابه عن نور الدين Vol.3,pp.913-914 ويتضـمنان إحصـاءً لمـدارس المـذاهب السـنية الاربـع التـي شـهدتها المنطقـة قبـل نور الدين وفي عصره.